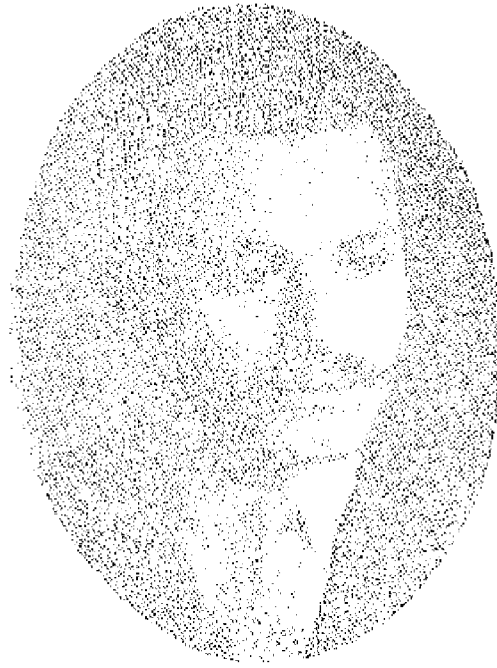




مصطفى كال حمدي

- * ولد في مديرية المنيا عام ١٩٢٣
- * تلقى ثقافته من مدرسة ويتيمية اللغتين الإنجليزية والفرنسية
- * عمل على كتابة القصة القصيرة وقد كتب حتى الآن قصة استغرقت كتابتها خمسة أعوام كاملة في قسمين عشوائيين كل قسم منها قصة قائمة بذاتها بعنوان "البؤساء" سوف تنشر له في الأسابيع القليلة المقبلة
- * يكتب من العاطفة لا من الخيال ولا يتقيد بأسلوب معين في كتابته تتارة تراء ساخر إلى آخر حدود السخرية وتارة أخرى تراء غاضبا تارة إلى أبعد حدود الغضب والثورة
- * يعمل في شركة فيليبس أورينت بالقاهرة

نحو أدب جديد

سُلَاحِي كَالْهُمْدَى

- | | |
|--------------|-----------------------|
| قصة وطنية | الإيمان . ١ |
| قصة اجتماعية | يانصيب . . . ١٠٠ |
| قصة وطنية | الثن الرخيص ١١٨ |
| قصة بوليسية | فسر الليل . |
| قصة وطنية | الكلاب . . . ١١٩ |
| قصة . . . ٩ | ثلاث كلمات صغيرات . |
| قصة وطنية | . . . أمهاتهم رويدا . |

ان رحلة طوطها ثلاثة آلاف
ميل تبدأ بخطوة واحدة

حكيم صيني

الاحتلال

...ولسكن ما أن أخرج من مكنتي وأرى جنود
الاحتلال وهي تسير في الشوارع وتنقل خطواتها
الثقيلة في زهو وخيلاء. بينما يسير أبناءنا على مبعدة منهم
وقد ملأ الخوف قلوبهم حتى أهرع عائداً إلى مكاني
وأتناول سلاحى في لهفة شديدة وتشتد قبضتى عليه حتى
يكاد يسطحه البارد يفجر الدماء من عروقى...

خبيثتي نأني . . .

حين عومت على الرحيل وراقك بغير وداع وبدون أن أراك
كنت قد عاهدت نفسي على أن لا أكتب اليك ، ولكنني وجدت نفسي
مجبوراً على نقض هذا العهد والكتابة اليك حتى لا أصاب بالجنون .

لأنني أتعذب . . . ١١

إن كل جراحة في جسدي تصرخ وتتأوه ، والدماء تجري في عروقي مملئة
بطاقات هائلة من المشاعر الفياضة التي ظننت أنني بقادر على كتمانها في صدري .
لقد أقسمت قسماً رهيباً ، وكنت عند قسمي ، ولم أسمع للضعف أن يتسلل
إلى روحي أو للوهن بأن يسري في جسدي وحطمت في قسوة وحشية
كل العتبات التي كانت تقف بيني وبين ما عقدت العزم عليه ، وخنقت كل
الإعتراضات التي قامت في وجهي ولكنني غفلت عن تقدير قوة هذا القلب
الخائف الذي لا يكف عن الصراخ في صدري . .

لعلك تتساءلين عما دفعني إلى هذا الاختناء المفاجيء بعد أن كدنا
نحقق سوياً ذلك الحلم الذي طالما داعب خيالنا في العامين الماضيين ١٩٠١ ؟
إن شواظاً من اللهب تستعر في جسدي عندما أتخيلك جالسة تدرفين
الدموع وتلمنين في قرارة نفسك ذلك الحبيب الغادر الذي تركك بدون
أن يقول لك كلمة واحدة .

إن جسدي يحترق في فيران من الجحيم عندما يمر بخاطري أنك قد
تعملين أسباب اختفائي المفاجيء تعليلاً خاطئاً وتظنين أنني لم أعد أحبك .
لأنني ألتصق لك العذر إذا كان مثل هذا الخاطر البغيض قد مر برأسك

الجميل وأنت تقدرين ذهنك محاولة البحث عن أسباب اختفائي الغاضب .
لا ريب أنك قد أيقنت أنني قد أصبحت بنوبة عارضة من الجنون
دفعتنى لأن أختفى هكذا وأترك وراءى كل شيء حبيب إلى نفسى بعد
أن أوشكت آمالنا الحلوة التى كلفتنا عامين طويلين من الانتظار المرير
والكفاح الجبار أن تتحقق .

حبيبتى . . . اننى أسمح لك أن تظنى بى ماشئت من الظنون ، وأن
تدعى قلبك المعذب وكرامتك الجريحة يمليان عليك ماشاء لهما من
الالتمامات ما عدا هذا الخاطر المقيت . .

اتعتقدين يا زانى أننى أستطيع الكف عن حبك ؟

أتعتقدين يا حبيبتى اننى قادر على منع الهواء من الدخول الى صدرى
ليبعث فى جسدى الحياة ؟

اننى أستطيع الامتناع عن التنفس ولكنى لا أستطيع السيطرة على
مشاعرى ومنع قلبى الخافق بحبك من الهتاف باسمك .

ان حبك هو الحياة بالنسبة الى

ان قربك هو نعيمى الذى أهرع اليه لاستريح تحت ظلاله الوارفة . .

ألا تصدقين بعد ذلك اننى أتعذب لبعادى عنك ؟

أيجول بخاطرك وانت تعرفين كل هذا اننى خائن مخادع ترك حبيبته
قبل موعد الزواج بأيام قلائل ؟

اننى اهز رأسى بشدة استنكاراً لهذه الفكرة البشعة ، وأود لو ظلمت
أطرق به هذا الجدار القائم بجوارى حتى أحطه لأنه سمح لمثل هذه
الافكار الخبيثة أن تعرف طريقها اليه .

اننى جالس الآن اكتب اليك وغينماى تحمقان فيما حولى بنظرات

مجموعة وقد انتابتني رعشة جعلت القلم يهتز في يدي مسجلا تلك
الثورة الهائلة التي تمرح في عروقي .

ناني — إنني تعس . . . كلا . . . كلا . . . إن كلمة التعاسة ما هي إلا لفظ
أجوف لا يعبر عن هذا البركان الذي يغلي في جوفي وهذه الهزات العنيفة
التي تنبعث من قلبي فقسري إلى جسدي وتجعلني أفقد توازني وأرتمي على
الأرض كيفما اتفق لا بللها بدموعي الساخنة .

حبيبتي — إن عزائي الوحيد في هذا المنفى الذي اخترته راحيا لنفسي
هو مذكراتي التي تبتدىء من اللحظة المباركة التي التقينا فيها . . .

إنني كلما سنحت لي الفرصة انتحى ركنا بعيداً عن أعين الناس
وأخرجها من جيبى وأقلب صفحاتها بخشوع لأستمد من سطورها النقاء
الروحي الذي يبعث بالقوة إلى جسدي ويلهني بنار الكفاح . .

يا لموكب الذكريات الجميل . . . !!

أتذكرين يا ناني كيف التقت عيناى بعينيك الساحرتين في أول مرة ؟
لقد ظلمنا نتبادل النظرات مدة طويلة وأنا احس الآن بهذا الديق
الناعم الذي سرى في دمائي وتلك الرعشة المبهمة التي غمرتني في هذه اللحظة
وأنت جالسة تحديقين في أمواج البحر المتلاطمة الممتدة أمام عينيك في كازينو
كليوباترة في الإسكندرية ، بينما كنت أنا جالس على مقربة منك أتطلع بنظرات
ناهية إلى الصحيفة المنشورة أمامي ولا أكاد أقرأ منها حرفاً واحداً .

لقد حرصت على تدوين كل صغيرة وكبيرة في مذكراتي ابتداءً من
هذه اللحظة الخالدة من عمري والتي أنقذت بعدها حياتي رأساً على عقب .
لطالما تساءلنا بعد ذلك اليوم كيف تبادلنا الحديث في أول مرة ،
وكنا دائماً نختار في الإجابة على هذا السؤال ولا نتذكر شيئاً على الإطلاق
عن الكيفية التي تم بها هذا بل كانت ذكرياتنا دائماً تبتدىء من بعد ذلك بوقت

قصير حين أفقنا لأنفسنا ووجدنا جسدنا متلاصقين ونحن سائران جنباً إلى جنب على شارع الكورنيش وقد تشابكت أذرعنا كأنما يعرف أحدنا الآخر منذ أبد الدهر .

كيف تمت هذه المعجزة يا ناني ؟

من لي بمن يذكر لي حقيقة ما حدث في هذه الفترة القصيرة التي سبقت سيرنا على الكورنيش . ؟

هل تكلم قلبنا قبل أن تنطق شفاهنا بكلمة واحدة وانجذبنا إلى بعضنا تحت تأثير قوة قاهرة جعلتنا نتحرك مقتربين بعضنا من بعض ونحن مسلوبو الرشيد ليجد كل منا نفسه في آخر الآخر بجوار الآخر .

يقولون أن الحب لا يعترف بالأرضاع المحروقة ولا يعبأ بالقرانين ، ولكن بما لا شك فيه إننا في ذلك اليوم قد بعثنا إلى العالم نوعاً آخر من الحب المجنون لم يعرفه أحد من قبل . .

لقد وجدت نفسي أضغ يدى فوق كتفيك الجميلتين وأنت جالسة بجواري على ذلك المقعد الخشبي نتأمل أمواج البحر المتلاطمة في طريق الكورنيش ، ووجدت نفسي وأنا أفعل ذلك أضغط بدون أن أشعر على كتفيك وأحسست في هذه اللحظة كأنما فقدت القدرة على السيطرة على لساني ووجدته لدهشتي يندفع في طلاقة ليصب في أذنيك بقوة وحرارة حي الذي اندلعت نيرانه فجأة في قلبي .

وشعرت في هذه اللحظة بتغيير عجيب يعتريني وأحسست كأن قلبي قد انتفض من مكانه وأخذ يدور في صدري بعنف ثم يطير من بين ضلوعي ويسبح لحظة في الهواء ويهبط ويقف أمامي على هيئة عملاق جبار ويرفعني على أطراف أصابعه ويقذف بي إلى أعلى في الهواء ثم يمد يديه ليملقطني وهو يضحك بمرح شديد .

وكان رأسي في هذه اللحظة يدور . . ويدور وقد ثمل من خمر الحب الذي
ابتدأ يلعب به حتى أن العجب لم يملكهني وأنا أراك ترفعين إلى وجهك
القائن وتمسين إلى بصوتك العذب أن كل ما قلته لك ما هو إلا صدى
لما تشعرين به أنت . .

كانت هناك قوة روحية هائلة تسيطر علينا في جلستنا هذه ووجدنا
أنفسنا وقد ذابت أرواحنا وأجسادنا وأصبحت أسيرة ذلك الشعور
الغريب الذي تملكنا فغبننا عن صوابنا ولم نعد نحس بالعالم الذي يسير
حولنا . ولا نعبأ بنظرات المارة المتطفلة التي كانت تنلصص على سعادتنا .
كم ضحكنا من قلوبنا بعد ذلك ونحن نتذكر هذه اللحظة . .

وكم أحسنا بمقدار ما استولى علينا من الجنون ونحن نتبادل كلمات
الحب بهذه القوة على ذلك المقعد بدون أن تكون لنا إرادة في ذلك ولم
يمض على لقائنا غير ساعة واحدة ؟

يا الروعة هذه الأيام .

ترى هل تعود مرة أخرى يا حبيبتي . . ؟

هل تعود مرة ثانية وتندفع مثلبا اندفعنا في الماضي لننهل من بحور السعادة
بذلك الظمأ الشديد الذي شعرنا به بعد لقائنا ؟

هل تعود مرة أخرى إلى قطع ذلك الطريق الطويل من الرمل إلى
سيدي بشر جيئة وذهابا ونحن لا نشعر بالدنيا ولا بالليل التي أرخى
سدوله ولا نحس بالشوارع التي اقفرت من المارة في ساعات
الليل المتأخرة . . ؟

هل تفتح لنا أبواب النعيم مرة أخرى ونمشي متلاصقين وقد تشابكت
أذرعنا وانت تستدين رأسك على كتفي تاركين النسيم يعبث بشعر رأسي
وضحكنا الهائلة تسابق الريح ؟

لكن كنت أود يا حبيبتي لو تركت هذه المذكرات ورأى حتى
لا تفتح وأنا أقرأ سطورها جروح قلبي ، ولكن عندما يعاودني الحنين
إلى ذكراك والتهم سطورها ، التي كنت أهرع إلى كتابتها بعد كل لقاء لنا
كلماتهم الوحش فريسة طال به البحث عنها والجوع يكاد أن يقتله . أحمد
نفسى لأننى لم أرتكب مثل هذا الخطأ الشنيع .

لقد جلسنا على جميع المقاعد المنتشرة على طول شاطئ الاسكندرية ،
وأنا كلما تذكرتك وانت جالسة إلى جوارى ترسلين الى جسدى تيارا
صاعقا من عينيك الجميلتين وصوتك يسبح مع النسيم وانت تغنين
أغاني الحب بصوتك الصافي وبمحاسن العاشقة الملهمة العواطف وقد احمر
خداك حتى كادت الدماء أن تتفجر منهما ، وعند ما أنتخيلك وأنت
تنظرين إلى بدلال بعد انتهاء كل مقطع من الأغنية وتفرج شفهاك عن
تلك الضحكة الحلوة الرائعة - اننى كلما أتذكر احدى هذه الجلسات أضغط
على شفتى بقوة لأمنع نفسى عن الصراخ والارتواء على الأرض أدقها برأسى
حتى استخلص روحى من جسدى لأستريح من هذا العذاب .

أظنن يا حبيبتي بعد كل هذا أننى قادر على منع نفسى من حبك ؟

أرجى إلى قلبك لينبتك بالجواب ...

عامان طويلان من السكفاح المرير لم تن لي فيهما عزيمة ولم يغمض لي
خلالهما جفن وكنت كلما توانيت أو دب التعب إلى جسدى أشعر كسأن
هناك سياتا من الحديد المحمى تلهب ظهري وتقذف بي إلى الأمام .

لقد حطمت كل العقبات التي وقفت في طريقك اليك وخضعت لجميع
شروط والدك القاسية التي وضعها أمامي قبل أن يوافق على زواجنا وخيل
إليه أننى سوف أراجع أمام استحالة تنفيذها ..

لقد كان والدك يكره أن يزوجه إلى موظف صغير مثلى ولكنه لم يجد

بدا أمام رغبتك القوية غير الموافقة على زواجنا وكان ما كرا يريد أن يكسب الوقت فوضع أمامي هذه الشروط لكي يحطم روحي المعنوية ويضعف ثقتك بي ، تلك الشروط التي كان يمكن أن تأخذ مني عشرات من الأعوام لتحقيقها ..

ولكنها يا حبيبتي هي معجزة أخرى من معجزات الحب التي لا تنتهي ، لقد وجدت نفسي أطير طيرا أنا نحو تحقيق هذه الشروط ولم أتوقف لحظة واحدة لالتقاط أنفاسي اللاهثة حتى كدت أقتل نفسي من العمل المتواصل والدراسة المستمرة ، ولم أشعر خلال هذه المدة الطويلة بتعب أو إرهاق بل كنت دائما أنظر إليك وأنت واقفة تنتظريني في نهاية الطريق فأوسع من خطواتي لآزداد اقترابا منك .

وانت تعرفين يا حبيبتي كيف نجحت أخيرا وبسرعة مذهلة أدهشت والدك وغيرت رأيه في وصار ينظر إلي في احترام وتقدير وتسلل إلى قلبه بدون أن يشعر ربح هادئة لذيذة بعثها إلى قلبه ذلك الحب العميق الذي يملأ قلبي وبارك زواجنا في غير تردد .

هل هناك أحد يا حبيبتي يصدق بعد كل هذا إنني أهرب منك بدون كلمة وداع واحدة ؟

إنني أنا لا أستطيع اقناع نفسي بأن هذا هو ما حدث . . . ١١

لماذا هربت إذا ١١٩

وماذا دهاني حتى اختفي على هذا النحو ١١٩

هل انتابني لومة مفاجئة من الجنون أفقدتني الصواب ١١٩

إنني يا حبيبتي لو ذكرت لك السبب الذي دفعني إلى الهرب منك

فسوف لا تمالكين نفسك من الضحك رغم المارارة التي تملأوك .

إنني أيضا لا أملك نفسي من الضحك وتخرج الضحكات من صدري

كانها الحشرة تحمل آخر أنفاسي..

اننى أنا نفسى لأصدق ان هناك قوة فى الوجود يمكن أن تبعدنى عنك .
لقد خشيت الكتابة اليك فى بادىء الأمر لأننى لم أجد فى نفسى
القدرة على شرح الأسباب التى دفعتنى إلى فراقك وانت اعز واغلى شىء
عندى فى الوجود .

انك يا حبيبتى مهما فكرت ومهما قلبت فى ذهنك عشرات
الإقتراضات والمعاذير تفسيرا لغياي فسوف لا يخطر ببالك قط السبب
الذى دعانى إلى ذلك .

اننى اتردد فى الكتابة وأنا على وشك ان اذكر اليك السبب !!
اننى استجمع شجاعتي لأقول لك اننى هربت منك لأذهب إلى منطقة
القنال ...

كلا بالله عليك لاتدعى هذه الابتسامة الساخرة تتلاعب على شفقتك
الجميلتين ودعيني احاول ان اشرح لك الدوافع التى اجبرتني على ذلك .
انك تذكرين بغير شك ذلك التغير المفاجئ فى طباعى وافت نظرك
نظراتى الساهمة التى تشرد كانت فى بعض الاحيان ونحن جالسان معا والذي
حدث منذ اسابيع قليلة .

لقد بدأ ذلك التغير فى طباعى عندما كنت ذات مساء جالسا
اقرا فى كتاب واستمع الى اغنية رقيقة تنبعث فى صوت هادى من المذياع
الموضوع بجوارى وقد اوشك الليل على الإنتصاف عندما قطع المذيع
جأة الاغنية ليقول ان القيادة الانجليزية قد وجهت إلى محافظ الاسماعيلية
إنذارا تهدده فيه باتخاذ اجراءات معينة اذا لم يرجع الى ثكناتها أحد
الطيارين الذى كان قد اختفى فى ذلك اليوم ، وحدد الإنذار للمحافظ مهلة
غايتهما الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى لاعادة الطيار المفقود سالما اليهم

وظلمت بعد ذلك جالسا مدة طويلة وأنا أحدى في جهاز الإذاعة
بستقرات بلهاء وقد غلت الدماء في عروقي ووجدت نفسي أتمم بدون وعي
— لقد انطلقت الوحوش لتعيث في الأرض فسادا مرة أخرى ... !!
ولم أتم في هذه الليلة بل ظلمت أبحث في مكتبتى المتواضعة عن كل كتاب
يحمل تاريخ الاختلال الانجليزى لبلادنا ..

ومضت الساعات القليلة الباقية من الليل ومع كل دقيقة تمر منها كانت
الدماء تزيد فورانا في عروقي حتى اذا ما فرغت من القراءة نهضت من
مكانى وفتحت النافذة واخذت احدى في الأفق على ضوء خيوط الفجر
الباهتة تاركا نسيم "صباح البارد يصفع وجهى ويهدى من حرارة
جسدى المحموم ..

وتراقصت أمام عيني الحوادث القديمة وبعثت حية من مرقدتها لتلطن
صفحة السماء الصافية بلون دموى قائم ..

رأيت بوارج الانجليز وهى تدك حصون الاسكندرية منذ سبعين عاماً
وأبصرت جنودها ينزلون إلى الشاطئ وشاهدتهم وهم يعملون القتل والتذبيح
في المواطنين العزل وصك مسامعى صراخ الفتيات والنساء عندما كان
الجنود يلقون بهن في عنف على الأرض ويغتصبونهن بوحشية بين
ضحكاتهن المخمورة .

وتجسم أمامى على ضوء الصباح الباكر خيال مذبحه دنشواى وسوط
الإرهاب الذى كان مصالمتنا على رقاب المصريين فى ذلك الوقت حتى كاد أن
يخنق أنفاسهم .

وتتابع أمام عيني المناظر والحوادث متواصلة مستمرة يمسك بعضها
بخطاق البعض وكل واحدة منها ترشق فى جسدى سهاماً مديبة من الحديد
حمية على سفير من الجحيم حتى وصلت إلى الماضى القريب .

واصطبيغ لون السماء أمامي بدماء الشهداء الذين سقطوا بعد الغناء
معاهدة ١٩٣٦ في منطقة القنال .

وعندما انبثق من الشرق أول شعاع ذهبي صادر من الشمس التي
أوشكت تخرج من حجابها رأيته يتلوى في خطوط اهتزت لها أهداب عيني
ليرسم أمامي على صفحة الأفق البعيد حروف ذلك الإنذار المتهجرف
الذي قدمته القيادة إلى محافظ الإسماعيلية بالأمس .

وأفقت إلى نفسي عندما شعرت بألم حاد يسرى في يدي فنظرت
إليها ووجدت اني في هياجي قد تركت أظافري تنغرس في خشب اطار
النافذة بدون أن أشعر حتى أدميتهم ..

وأخذت أتساءل .. ترى لو كان هذا القائد الذي وجه اليينا ذلك
الإنذار يعرف أن في هذه البلدة قوة يخاف منها كان يقدم على مثل هذا
العمل الآخرق ١١٤

لابد انه يعتقد اننا قطيع من الغنم نسير على هدى عصاه ونرتجف برعبا
كلنا لوح بها في الهواء فوق رؤوسنا ..
اني يا حبيبتي ألتبس الغدر لهذا القائد إذا كان يعتقد ذلك لأن عنده
من الأسباب ما يقوى هذا الاعتقاد ويغذيه .

ولم لا يؤمن بهذا الرأي ١١

هل هناك شعب في العالم كله كابد مثلما كابدنا من سنين الاستعمار
الطويلة وتجرع كؤوس المران مترعه وهو لا يحرك ساكناً مثلنا فعلمنا ؟
كيف باقته مرت علينا كل هذه الأعوام الطويلة ونحن نسير وأعناقنا
مقيدة بسلاسل غايضة تنتهى جميعها إلى سائلة واحدة يمسك بطرفها قوم يسروننا
في الاتجاه الذي يريد . الانجليز ؟

إني أضحك يا حبيبتي بمرارة تكاد أن تسمم دمائي .

لقد هملنا وكبرنا عند ما ابتدأ الراعي الانجليزى يتحسس أجسادنا
ليجعلها ضحايا مطامعه وشهواته .

ورأى هو ذلك فتحمسك الجشع — ومن ذا الذى لا يفعل عندما يرى
أمامه لقمة سائغة يستطيع أن يبتلعها بدون أن تسبب له المأ فى حلقه .
ولما لم نحرك ساكناً ووجدنا نذهب لاهين إلى شؤونا الخاصة وكل
منا ينتهز فى ارتياح لأنه لم يكن فى عداد الضحايا ورأى كل منا يبتسم فى
شمتة لما يصيب الآخرين انطاق من عقاله وأخذ يعمل فيما الذبح والتقبيل
ويسخرنا لمصالحه الخاصة وهو آمن مطمئن ولو انه كان يعجب عند ما يرانا
ونحن ندوس بأقدامنا أبناء لنا أرادوا الثورة على هذا الوضع الشاذ
ورفعوا عليه راية التمرد والعصيان .

هل بعد كل هذا يا حبيبتي نلوم ذلك القائد إذا صفعنا بمثل هذا
الإنذار الذى يحمل إلى أجسادنا فى كل حرف من كلماته وخزاً أشد
إيلاماً من وخز الابر الحادة ؟

لو كان يخطر بباله أننا سوف نشور ونجعل الأرض تنزل
فى قوة تحت أقدام جنوده المسكرين فى منطقة القتال لكان فكر
مراشاً قبل أن يمر بذهنه مجرد فكرة توجب مثل هذا الكلام إلينا .

نانى . . . إنك يا حبيبتي بلا شك سوف تقفين عند هذا الحد من
خطابى وتضربين كفاً بكف وترحين على عقلى — ولكنى صبراً يا حياى
حتى انتهى ولك بعد ذلك أن تحكى عما إذا كانت الكلمات التى اسطرها
إليك هى مجرد هذيان شخص فاقد الوعى أو صرخات صادرة من أعماق
كرامتنا الجريحة .

إنك تذكرين كيف كانت أعصاب الجميع متوترة فى صباح اليوم التالى
الإنذار وهى ترقب بالهفة وقلق عقارب الساعة وهى تقرب من التاسعة .

وتركت عملي في هذا الصباح ووقفت إلى جوار أحد أجهزة الاذاعة
عندما حل اليأس الاثير في تمام الساعة التاسعة صوت أحد رجال الثورة
ناضيا بالحياة إومليًا بالقوة والإعتداد بالنفس وهو يسخر من الانجليز
ودسائسهم الوضيعة وتحمل نبرات صوته اليأس كل معاني التعدي والاستهتار
لقوتهم الغاشمة وفي طيات كل كلمة من حديثه احتقار شديد لهذا الانذار
المبين وترحيب كبير للموت في سبيل الوطن ..

ووقفنا يومها جميعا صامتين نسمع في رهبة إلى حديثه ثم عدنا إلى
أعمالنا وأمضينا بقية اليوم ونحن نعد أنفسنا لأسوأ الاحتمالات حتى حانت
الثانية والنصف فهرعنا لنسمع نشرة الأخبار . . . ووقفنا لنسمع عجباً !!
لقد وجه أرسكين منذ عامين انذاراً إلى محافظ السويس يقول فيه انه
سيهدم قرية كفر عبده في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي فئسارت
الدنيا وطبلت ولسكننا لم نسمع صوتاً يرد على هذا المعتدى على حرياتنا
والذي يريد أن يهدم مساكننا ويشرد أطفالنا ونساءنا ولم نعجب حين
وجدناه يتقدم بدباباته وجيوشه لهدم القرية العزلاء في الموعد المحدد
والعله لم يحافظ على موعد في حياته مثلما فعل في ذلك اليوم .

إذا ما الذي حدث في خلال هذين العامين ؟

وما الذي جعل خليفة أرسكين يتراجع في انذاره ؟

هل أصاب دباباته الجود ورفضت أن تتحرك من مكانها ؟

هل أعلن جنوده تمردهم عليه وعصيانهم لأوامره ؟

لقد زادت القوات الموجودة بمنطقة القتال عما كانت عليه في الماضي

وكثرت طائراتهم ودباباتهم ، إذاً لماذا تراجع خليفة أرسكين وحاول
أن يغطي موقفه ؟

هل إشتتم في الجو خطراً لم يكن أرسكين يشعربه ؟

هل شعر بالأرض وهي ترتجف من تحت أقدامه في هزات خفيفة
معلنة عن هذا البركان الذي ينل في جوفها ويوشك على الانفجار في قوة لم
يعرف مثلها من قبل ذلك ؟ انفجار يجعل سطح الأرض ينشق من تحت
قدميه عن فجوة هائلة تبطل جيوته ومعسكراته في غضة عين ١١.

لقد عرفنا جميعا الإجابة على هذه الأسئلة عندما تذكرنا ذلك البيان
الذي ألقاه أحد رجال الثورة في الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم التاريخي -
حبيبتي ناني . . . اني أتوقف لحظة عن الكتابة لأقبل صورتك
الموضوعة أمامي وأبشأ أشواقي اليك واعتذر لها على خشوع خطابي
اليك بهذا الكلام الذي لم يحدث أن فكر أحد قبل ذلك في كتابته داخل
خطاب غرامي .

اني يا حبيبتي أكاد ألاج سؤالا حائرا يتردد على شفئك الجميلتين . . .
ولا ريب أنك تنسألين وتقولين في نفسك وما دخل مثل هذه الترهات
في زواجنا المنتظر الذي كنا نعد بفروغ الصبر الدقائق والشواني الباقية
على موعده ١١٩

ولكن صبرا يا حبيبتي فاننا لم أنه بعد .

اني حين أتزوجك سوف أكون مسؤولا عن حمايتك أليس كذلك ؟
إذا أستطيعين أن تقولي لي ماذا أفعل لو حدث واقتحم علينا مسكننا
في ظلام الليل جنود مدججون بالسلاح وقذفوا بي تحت أقدامهم
ووطأوني بأحذيتهم الثقيلة ثم شدوك اليهم بعنف وتبادلك بين
أحضانهم ١٢

إنك ترفعين عينيك في دهشة واستنكار وتهتز يدك الممسكة بالخطاب
اشمأزا من هذا الكلام البشع وتقولين أن هذا لا يمكن أن يحدث قط
في القرن العشرين واني قد اشتطت في خيالي وان هذه اللحمة الفجائية

التي أصابتني جعلتني أهذى وأخرف .

إننى أرجوك قبل أن تفعلنى هذا أن ترجعنى إلى الماضى القريب ،
اننى لا أريد أن أثقل عليك بسرد تلك المخازى التي يندى لها الجبين والتي
حدثت فى القاهرة عام ١٩١٩ ، كلا فقد كنا نحن فى بطون الغيب فى
ذلك الوقت ، إننى أريد منك فقط أن تعودى بذاكرتك إلى ما حدث
فى منطقة القنال منذ عامين على أثر إلغاء تلك المعاهدة المشؤمة .

كم من النساء هتكت أعراضها وكم من الرجال وطئت أجسادهم تحت
نعال الانجليز وكم من المواطنين الأبرياء تعرضوا لمختلف صنوف
الجور والطغيان ..

لقد سرقوا أعراضنا وأموالنا وضربونا بأطراف نعالهم واندفعوا
بجنون إلى الشوارع يذهبون المتاجر ويسرقون المسافرين ويقتلون فى سهولة
كبيرة كل من يقف فى طريقهم .

فهل تريدان يا حبيبتي أن يحدث لنا مثل هذا بعد أن نتزوج ؟
إنك ولا شك تقولين لنفك ومالنا نحو الإثنين وكل هذا
اللفو الفارغ ولماذا لا نترك الآخرين يطردون الانجليز إذا استطاعوا
وتفرغ نحن لحياتنا الزوجية المنتظرة ، وهذه هى الأناينة المحضنة
يا حبيبتي .

إننى لا أعرف إذا كنت سأتمكن من إقناعك بوجهة نظرى أم لا ولكنى
واثق من شىء واحد ..

إننى واثق بأننى سوف لا أتزوجك إلا عند ما أشعر بأننى سوف
أكفل لك جميع أسباب الراحة والأمن وأجسد فى نفسى القدرة
على حمايتك .

لقد اشترط على والدك شروطاً قاسية لتحسين مستقبلى ومركزى

الإجتماعي لا كونه جديرا بك ولم أتردد في الخضوع لإرادته لأنني كنت أحبك بحنون وقد فعلت المعجزات حتى نجيحت . .

ولكنني في ذات ليلة أفقت لنفسي ووجدت أن علي واجبات أخرى أقدس من تلك التي أملاها علي والدك لا كونه حقا جديرا بك..

ناني . . أيتها الحبيبة . . . يجب أن تتزوجي من رجل حر يستطيع أن يكفل لك كل أسباب الطمأنينة ولا يجرؤ إنسان على إفتحام مسكنه في ظلام الليل .

ناني يحب أن تعرفني يا حبيبتي بأنني لم أذهب إلى منطقة القنال إلا لأنني أحبك حبا أقوى من الحياة .

يجب أن تتأكدني أنني قد ذهبت إلى هناك لأرطد دعائم عشنا المستقبل على أسس ثابتة لا تزعزعها الأهواء والأعاصير .

لقد ذهبت لأنقي الهواء الذي تستنشق فيه حتى يصل إلى رئتيك خالصا لا يعكره غبار دبابات الإنجاز .

لقد ذهبت لأنني أثبت الأرض تحت أقدام أطفالنا المستقبلية حتى لا نراهم يذبحون أمام أعيننا ونحن لا نملك أن نفعل شيئا لإيقافهم ونعض بناننا من الندم بعد فوات الأوان . .

إنني حين أقارن بين ما كنا عليه في الماضي من الخضوع والإستسلام وأحس بأثار السلاسل الغليظة على عنقي وأطرافي ، وبين حالتنا اليوم ونحن أحرار لا يقيدنا أي شيء ولا يفصلنا عن الحرية الخالصة غير معركة بسيطة أشعر بأننا سوف نضيق أحسن فرص العمر لتحطيم هذه الأغلال إلى الأبد وفتح نوافذ الوطن التي طال إغلاقها ليتدفق إليه نسيم الحرية .
لأنني حين أستعرض أخبار الصحف الحافلة بأنباء الإعتداءات الوحشية التي تنزل بالمواطنين المسلمين في العالم العربي أوقن بأننا سوف لا نقوم

لننا قائمة بعد اليوم إذا وقفنا لحظة واحدة لنفكر قبل أن نلقى بأنفسنا في غمار المعركة الفاصلة بيننا وبين الانجليز .

ألم نقرأى أنباء تلك الإعتداءات المنسكرة التي يتعرض لها المواطنون الأبرياء في تونس ؟

ألم يصل إلى سمعك تلك الفظائع الهمجية التي تحدث في مراکش كل يوم ؟

أرأيت كيف يهجر الجنود الفرنسيون بطون الرجال أمام دورهم في وحشية رجل الغاب ؟

ذبح وتقتيل واضطهاد وقلاقل وخنق للحريرات في كل مكان ..
في كينيا ومراكش والجزائر وإيران وفي كل مكان يجد فيه الإستعمار
أياماً كان نوعه ضعفاً واستخذالاً ..

إننى لو أردت أن أعدد لك المهازل التي تمثل كل يوم على أراضى البلاد المحتلة ونمر نحن بأعيننا على أنبيائها بهسامة مر السكرام بدون أن نقف لحظة واحدة لنفكر في احتمال أن يصيبنا مثلاً ما أصابهم من المأسى في القريب العاجل — إننى لو أردت أن أعدد لك هذه الفظائع فسوف أستغرق أعواماً طويلة في الكتابة قبل أن أنتهى ..

أتعرفين لماذا لا نتوقف عند هذه الأنباء ولا نسمع فيها ولماذا لا نسمح لأنفسنا بالتفكير في احتمال أن نكون نحن عرضة لمثل هذه الفظائع التي تحدث بعيداً عنا ونقرأ أنباءها بلا اهتمام ؟

إننا لا نفكر في هذه الأنباء لأننا لا نرغب في التفكير، ولأننا تعودنا أن نأخذ الأمور على علاتها ..

لقد تعودنا أن نسبح في سماء الخيال لنبحث في رحباتها الفسيحة عن

الآمانى التى تحن اليها أنفسنا وتصبو إليها أفئدتنا ولنفتش فى أجوائها عن
حلا لجميع مشاكلنا حتى صرنا نشور ونملا الدنيا ضجيجا على كل من يحاول
أن ينتشلنا من خيالنا المريض ويدفع بنا إلى الواقع المرير ..

إننى حين أستعرض التاريخ أقف مذهولا أمام عظمة أولئك الرجال
الذين تركوا أوطانهم ومنازلهم وكل شىء وراءهم ليذهبوا إلى الموت بأسمى
النشور كلها أحسوا بدخيل ينقر على أبوابهم محاولا أن يعكس صفو حريتهم .
إننى أحنى إعجاباً كلما قرأت تاريخ أى أمة ناهضة بنت عظمتها
ومجدها فوق أحجار من جثث أبناءها، وعندما استعيد فى ذهنى ذكرى
أولئك الرجال الذين خلدوا عظمة بلادهم على مر التاريخ وسقطوا
بدمائهم أممها فى صفحات المجد والفتخار أشعر بعرق الخجل البارد يبللنى
واكاد أبصق على وجهى احتقاراً فى المرأة .. وأسائل نفسى فى عجب !

هل يختلف عنا هؤلاء الأبطال فى شىء ؟

هل وهبتهم السماء قوة أكثر منا وأسبغت عليهم الطبيعة شيئاً غريباً
لأنهم لميزهم عنا ويشعرونا بضعفنا كلما قارنا أنفسنا بهم ؟

إننى لأظن ذلك واعتقد أنهم أفراد عاديون مثلنا تماماً ومن المحتمل
أن نكون نحن أكثر منهم قدرة على احتمال المكاره وأشد منهم جرأة
لاقتحام المهالك ..

نانى يا حبيبتي .. إننى أحاول عبثاً أن أطرد هذه الأفكار الشائنة من
رأسمى لأكتب إليك قليلاً عن حنى وعذابي من بعدى عنك ولأناجيك بعبارات
الغزل والهيام التى تعودت أن أسكبها فى أذنيك ولكنى أجد نفسى دائماً صريع
هذه الدوامة الغنيمة التى أمسكت بي فى منتصفها واخذت تدور بي فى سرعة

زائدة ولا تريد أن تتوقف ..

إننى اشعر بأن كل كلمات الحب والغزل قد تلاشت من راسى فى هذه اللحظة لتفسح مجالا لهذه الكلمات التى تزدهم فى خواطرى ازدحاما مخيفا كل منها تحاول ان تقرب وجهه نظرى إلى ذهرك وتقنعك بصواب ما فعلت
إننى احس بأنك لاتصدقين ان هذا هو السبب الحقيقى لهربى منك وانا لالومك على هذا الإعتقاد الخاطيء لآنى غير قادر على تصديق نفسى
إننى فى حاجة لأن ادور بنظراتى فى هذا المكان الغريب على ولأن التحمس سلاحى فى كل وقت لآنا كمد بأنى لآأحلم .

يخيل لى فى بعض الأحيان ان ما فعلته ليس إلا نزوة عابرة نفذت الى راسى فى ساعة تحمس ويجرفنى شوقى إلى رؤيتك فالقى بسلاحى لأطير إليك ولما أن اخرج من مكفى وأرى جنود الإحتلال وهى تسير فى الشوارع وتنقل خطواتها الثقيلة فى زهو وخيلاء بينما يسير ابنائنا على مبعدة منهم وقد ملاء الخوف قلوبهم حتى أهرع عائداً إلى مكانى وأتناول سلاحى فى لحظة شديدة وأشتد قبضتى عليه حتى يكاد سطحه البارد يفجر الدماء من عروقى ..

حبيبى — لو أن شخصا غيرك قرأ هذا الخطاب لما وجد فيه شيئاً غير عادى وأنا لآأحاول أن أبدو بطلا فى عينيك فأنا الآن لم افعل شيئاً أستحق عليه هذا اللقب وقد كان كل ما فعلته هو أبسط الواجبات التى لا يتردد اقل الناس فهمها للامور على عملها .

إننى اشعر وانت التى تعرفيننى جيداً بنظراتك الحائرة وانت تفرين خطاى الذى تبدو كلماته كالغاز بالنسبة اليك واجدك تتساءلين
ما الذى دفعنى لأن اتحول عن مبادئى فى غمضة عين وأما الذى كنت

كافرا بكل شيء من قبل ذلك ؟

ماهى الأسباب التى جعلتنى أترك حبيبتي ونحن على وشك الزواج
لأهرع إلى معسكرات التدريب ثم اطيروا الى منطقة القنال بعد ذلك
إستعداداً للمعركة الراهبة القادمة وأنا الذى كنت قد كفرت بكل من
نادوا بذلك من قبل ؟

ماهى القوة الخفية التى سیرتنى تحت تأثيرها وجعلتنى أطلق راضياً كل
شيء حبيب إلى نفسى لأقف أيامى المقبلة على القتال فى سبيل حرية بلادى ؟
لأرب أن هناك سبباً أعمق من مجرد إنذار موجه من قائد الانجليزى
أرسله لمحافظة الاسماعيلية .. !!

انك تذكرين يا حبيبتي كيف كنت ألقى بالصحف جانباً فى عصبية
زائدة عندما كانت أنظاري تقع على أنباء الاعتداءات الانجليزية على
المصريين فى منطقة القنال فى الفترة التى تلت إلغاء معاهدة ٣٦ فى أكتوبر
منذ عامين تقريباً وكيف كنت أنت تشفقين على من هذه الثورة الجاسحة
التي كانت تتمسكنى وتجعلنى أمسك بالصحف أمزقها بين أصابعى وأحوطها
إلى قطع صغيرة عندما كنت أقرأ أسماء الشهداء الذين كانوا يتساقطون كل يوم .

كانت كل جراحة فى جسدى تحترق من الغيظ . كلما رأيت فى الصحف
تواييت الشهداء ملفوفة فى الأعلام وقد ازدحمت من حولها جموع
المشييعين يذرفون الدموع السخينة على أرواحهم الطاهرة .

خبرينى بالله عليك يا حبيبتي ماذا فعلنا للإنتقام لهذه الأرواح البريئة
أكثر من ذرف الدموع وتشيع رفات الضحايا بكل مظاهر الاجلال
والاحترام III

لقد كنت أفضل ألف مرة لو أننا وراينا قتلاتنا فى صمت وهمدوء ثم

تسللنا إلى معسكرات المعتدين الآثمين لننجيل حياتهم جميعاً ونمحصدهم منهم
برصاصنا ما يمكن أن يشفي غليلنا على ضحايانا الأبرياء لتستريح أرواحهم
القلقة التي كانت ترفرف فوق رؤوسنا في توجع منادية بالإنتقام

كنت أقلب الصحف في طرفة بصرها بما يمكن أن يهدىء من أعصابي الثائرة
ويطفيء هذه النار التي تلهبني لهيباً فلا أجد غير تصريحات جموداء وكلام
منهق مسطور بأسلوب انشائي بديع يبعث في الجسد بعد قراءة الدعة
والاستسلام .

أين نيران الجحيم التي كان يجب أن تشتعل ويزداد لهيبها تحت عواصف
الحقد ورياح الحق للمستعمر الغاصب ؟

أين الزلازل والبراكين التي تهز الأرض من تحت أقدام جيوش
الإحتلال وتصرخ فيهم بصوت كزير الوحوش الضارية قفوا أيها الجبناء !!

أين الرعد القاصف الذي بخلع أفئدتهم من الرعب ويدوى في آذانهم
صارخاً — أيها الأندال سوف تدفعون الثمن باهظاً لحياة كل شخص يموت
برصاص مدافعكم الرشاشة ؟

كانت هناك ملايين ترتجف من الخنق والغضب وعلى استعداد للتضحية
بأي شيء في سبيل السماح لها لأن تطير إلى منطقة القتال لتلقى على الإنجليز
درساً لا ينسونه أبداً الدهر وتجعلهم يفكرون مراراً قبل أن يحصدوا
برصاصهم المواطنين بغير حساب ..

وظل الجميع ينتظرون بلهفة شديدة وصبر نافذ صرخة القتال المنتظر ..
وأرهبوا آذانهم لسماع نفيير الجهاد وتحطمت أعصابهم من مرارة الانتظار
الطويل ... فماذا حدث !! ؟ ...

استمر الإنجليز يصطادون المواطنين بمدافعهم السريعة الطلقات بنفس البساطة

التي تعودوا أن يشربوا بها أفداح البيرة بدون أن يحرك أحداً ولم نفعل شيئاً أكثر من تغطية جثمان الشهيد بالعلام والتراحم حولهم لتشجيعهم في إجلال إلى مقرهم الأخير تاركين الدموع تتدفق من أعيننا بغير حساب كأننا نريد أن نستجدي الرحمة من قلوب الإنجليز والعطف من العالم الخارجي كان قواد الجيوش الإنجليزية ينامون ملء أجفانهم وهم مطمئنون لأنهم يعرفون بأن كل هذه الضجة ما هي إلا مناورة سياسية سوف تهدأ بعد قليل وبعد أن تلتهم في طريقها بضعة مئات من المواطنين الذين جرت العادة على التضحية بهم في أمثال هذه المناورات .

كانوا واثقين بأننا لن نعنى الكفاح أو أنهم كانوا على الأقل يعرفون أن من يمدهم مقابلد الأمور كانوا لا يقدرّون أهمية هذه اللحظة الراهنة التي يتأرجح فيها مصير البلاد التي أكرمهم ورفعتهم إلى الذروة — ولولا إيمانهم بذلك لما كان عدوانهم قد استمر في الإزدیاد يوماً بعد يوم .
دعيني أضحك في مرارة يا حبيبتى . .

حتى في هذه اللحظة الخطيرة من تاريخ حياة بلادنا لم يتورع كل فرد عن السعي واستغلال محنة الوطن لخدمة مآربه الخاصة ومطامعه الدنيئة كنا قد أعلننا الحرب على الإنجليز وقطعنا عليهم مواد التموين ولكن هذه أيضاً كانت مناورة سياسية تحمل نتائجها عدد كبير من تجار القنال بينما أثرت في نفس الوقت فئة قليلة من المحظوظين ثراء فاحشاً من وراء تزويد القوات الانجليزية بكل ما يحتاجون اليه من الأغذية .

كانت الصحف تهمل وتكبر وتنادى لإصدار قانون يصرح لكل مواطن بحمل السلاح حتي يتمكن قبل ان يسقط مضرراً بدمائه من أن يرسل الى الجحيم بعض من اعتدوا عليه بدون حق وليكون في هذا عزاءه الأخير ولا يفارق الدنيا مقتولاً بالحسرة على حياته التي ذهبت

هدراً قبل أن يموت من تأثير رصاص الإنجليز ..
كانوا يصرحون علناً في أحاديثهم بأن السلاح سوف يكون في متناول كل
مواطن بينما كانوا في الخفاء يقبضون على المجاهدين في منطقة القنال ويجردونهم
من أسلحتهم ويلقوا بهم في اعماق السجون كأحقر اللصوص .

كانت هناك عشرات من المهازل تمثل كل يوم وكننا جميعاً نعرفها
ولا نملك أن نفعل شيئاً حيالها وأنت بلا شك تذكرين لأنني لم أكن
أخفي عنك شيئاً وكنت أنت دائماً تخافين على من نتائج ثورتي الحمقاء
كما كنت تسمينها وتتضرعين إلى أن لأشغل نفسي بهذه السفاسف وأركز
كل جهودي نحو سعادتنا المنتظرة .

وأخيراً خضعت والأسى يملاً كيأني لرغبتك إذ كنت أعرف أنك
على حق إذ لم يكن هناك فائدة ترجى من هذا الحماس الذي كان يقابل
بالإستفكار من كل من يسمعه ..

وكفرت بعد ذلك بكل شيء وانطويت على نفسي وأصبحت الأحداث
التي تجري من حولي لا تأثير في أذني اهتمام ، وقاطعت الصحف لأنني كرهت
منها ذلك التكرار الممل في الثناء والمديح تارة وفي السباب والقذح تارة
أخرى، ولأنني أصبحت لا أصدق حرفاً واحداً مما تقول .

وأقنعت نفسي بأنني كنت أحقاً طيلة هذه المدة التي ضاعت من
حياتي بدون فائدة وبلدت إحساساتي الوطنية وابتدأت الانانية تتسلل
إلى نفسي وعزيت ضميري بأنني لا أعدو أن أكون غير فرداً واحداً من
ملايين المصريين ولا أملك أن أفعل بمفردى شيئاً .

كنت أعتقد أن الذين بيدهم مقاليد الأمور في بلادنا ما هم إلا جماعة من
الدجالين الذين اتقنوا فن التهريج والشعوذة — إن هذا كان رأيي الخاص
ومن المحتمل أن أكون على خطأ — ولما لم أجد من يقنعني بخطأ هذا

الإعتقاد كسفت بهم وأصبحت لأصدق حرفا واحدا من تلك التصريحات
السخية التي كانوا يخدرون بها الأعصاب ويتدشقون بها بغير حساب
ولما كنت يا حبيبتي تعرفين أكثر من غيرك أن هذه آرائى
فلا شك أنك الآن تعتقدين أنى أحاول من وراء هذه الخطاب أن أغطى هروبي
منك وأنتحل الأعداء الواهية للتخلص من الزواج بك ، لأنك جرد
واثقة من أنى سأكون آخر من يذهب للقتال .. فأنت تعرفين جيدا أنى
أكره أن أساق للذبح كالشاة وأبيع روحي رخيصة لمبدأ لا أعترف به
وأقدم نفسى ضحية على مذبح سياسة عرجاء ..

إذا لابد أن تكون هناك معجزة قد حدثت وقلبت آرائى رأسا على
عقب وجعلتنى أستعيد إيمانى بعد طول كفر ..

نعم يا حبيبتي ... إن ما حدث لأشبه ما يكون بالمعجزات
أتذكرين يا نانى ذلك الشعور الغريب الذى طوانا تحت جناحيه ونحن
جالسان على ذلك المقعد الخشبي وأرغمتنا على أن نتبادل كلمات الحب والهيام
بقوة وحرارة ولم يمض على لقائنا غير ساعة واحدة ؟
أتذكرين يا حبيبتي كيف فقدنا السيطرة على مشاعرنا فى هذه اللحظة
وغدونا أسيرين لقوة سحرية لا عهد لنا بها ؟

لقد حدث لى مثل هذا تماما وأنا أستمع إلى بيان أحد رجال الثورة
فى صباح اليوم التالى الإندار الذى وجهته القيادة الإنجليزية إلى محافظ
الإسماغيلية بمناسبة اختفاء ذلك الطيار .

لقد أحسست يومها بأشعاع غريب تدفعه زبرات هذا الصوت المتحدى
إلى دمائى وشعرت بروحي العطشى ترتوى من كلماته النارية التى طالمسا
حننت إلى سماعها ، ووجد حديثه طريقة إلى مشاعرى وأخذت كلماته تحطم
فى عنف تلك السلاسل التى كانت تقيد مبادئ القديمة التى كاد أن يعلوها

الهدأ من كثرة الجود، وترأخت أعصابي وأفسحت الطريق أمام ذلك الحماس.
القديم الذي ظل مخنوقاً في صدري طيلة هذه الأعوام الماضية واندفع
هائجاً كالعاصفة مكتملاً في طريقة كل شيء ..

نعم يا حبيبتي لأنها المهجزة الكبرى التي طال انتظار الجميع لها والتي
يتسنا من حدوثها بعد أن عظم أعصابنا طول الإقظار المرير ..
لقد انفجرت في أعماقي في هذه اللحظة ينابيع الإيمان فغسلت بمائها
المقدس ذلك الكفر المبين الذي كنت سادراً فيه وأحسست بدبيب الأمل
يسرى في عروقي وامتلاً الهواء من حولي بدقات أجراس خفيفة
وصلت إلى أذني خافتة كأنها صادرة من مكان سحيق، ثم أخذت تعالو
وتشدوهي تقترب مني حتى أصبحت تدوي في آذاني مثل الرعد القاصف
فصرخت من أعماقي بدون أن شعر

— لقد دق ناقوس الحرية أخيراً ... —

واستعدت منذ هذه اللحظة إيماني بكل شيء وأيقنت أن وقت المناورات
السياسية قد انقضى وأن هناك رجالاً يحترقون في هدوء وصمت لترفع
من رؤوسنا التي كادت أن تلتوي من كثرة ما تعودنا من إحنائها وأصبح
من الصعب علينا إعادتها إلى وضعها الطبيعي .

وغمرني في هذه اللحظة شعور غريب من الثقة والاطمئنان في هؤلاء
القوم الذين يقفون في وجوه الإنجليز يتحدون الموت في بسالة وعلى
وجوههم ابتسامات السخرية والاستخفاف لكل ما سيتعرضون إليه من
أهوال .

وأصبحت على يقين من أنني أستطيع الآن الذهاب إلى القتال بنفس
لا يعترها القلق وأنا في غير حاجة إلى الالتفات ورأى في كل لحظة خشية
خنجر غادر تسدده الخيانة إلى ظهري

عرفت في ذلك اليوم اننى اذا قذفت بنفسى فى معركة الحرية وسقطت
فى ميدان الجهاد فسوف ينظر الناس إلى جثمانى بالإحترام اللائق برجل باع
روحه لبلاده ولا تتراقص على شفاهم تلك الإبتسامة الهازئة التى تعودت
أن تقفز إلى وجوههم كلما رأوا نعوش الشهداء محمولة على الأكتاف وخلفها
آلاف المشيعين يذرفون الدمع السخين .

يا لروعة هذه المعجزة يا حبيبتي التى جعلت الحياة تجرى فى عروقنا
مرة أخرى وبالحلاوة هذا الإيمان الذى طرد اليأس والقلق المعشش فى
أرواحنا ...

ما أجمل أن يكون المرء مؤمناً بنفسه وبكل ما يدور من حوله وبكل
شئ فى بلاده ؟..

إننا ننتظر الآن يا حبيبتي بفارغ الصبر دقائق ناقوس الجهاد لننتقل من
مخاضنا لنزول الأرض تحت أقدام المستعمر ولنذيقه من العذاب ألوانا لم
يعرفها التاريخ من قبل ولنشأراً لأعراضنا التى دنست وكرامتنا التى وطأتها
النعال ولنطفيء هذه النار التى ظلت تحرق صدورنا منذ عشرات السنين .
نانى .. يا أعز شئ عندى فى الوجود ..

هل غفرت لى الآن ذهابى هكذا بدون أن أقول لك كلمة
واحدة ؟ .

لقد خشيت القدوم اليك لإبلاغك بما أستقر عليه رأيى لأننى كنت
أعرف إنك سوف لاتوافقين إطلاقاً على ذهابى وأن الأناية سوف تدفعك
إلى الإمساك بى فأردت أن أضعك أمام الأمر الواقع لأننى كنت أخاف
أن أضعف أمانك وأنزل عند إرادتك وكنت واثقاً من أننى إذا رأيتك
قبل ذهابى فانك سوف تشينى عن عزمى لأننى لا أتردد فى قتل نفسى لمجرد
إشارة منك ، وكنت أفضل الموت ألف مرة على أن أتخلف عن الذهاب والسير

فى طريق الجهاد المقدس ولو لم أفعل ما فعلت لما كنت أصفح عن نفسى
طيلة العمر ..

لقد عشت طيلة حياتى أكره النفاق والتشددى بالكلام الأجوف ،
فإذا كنت ستظننى بى بعد أن تفوقى من غمرة الحب المسيطر على عواطفك
وتعرفين اننى لم أكن الا كاذبا ومنافقا مثل كل هؤلاء الذين كنت امقتهم
طول الوقت .

حبلىتى — هل تريدن الزواج من رجل سوف يقضى طول عمره
فريسة لتأنيب الضمير وفى أعماقه صوت رهيب يصرخ فيه وينبته بالنذالة
والجن ؟

ألا تعرفين أنت الهواه الذى يدخل إلى صدرى يصفر فى أذنى
ويسألنى عن الثمن الذى دفعته فى مقابل النمل منه بغير حساب ؟
لأننى أردت أن أقاتل حتى أسدد ما على للوطن من حقوق وحتى اطمئن
طول الايام الباقية من عمرى بأننى لست عالة على أرضه المقدسه ..

والآن يا معبودتى أتومل اليك وأرجوك أن تكفـكفى دموعك
وتدعى هذه الإبتسامة العذبة التى طالما سحرتنى ترتسم مرة أخرى على
شفتيك ولا تدعيها تغيض عن وجهك أبدا وأن ترفعى رأسك بفخار وتطردى
هذا الضعف المستولى عليك ..

لنا الآن ندق الأرض بنفاذ صبر ونستعجل ساعة الكفاح ونكاد
نسكون شبه عاجزين عن السيطرة على سيل الخاس الجارف الذى يوشك
أن يكتسحنا فى طريقه ويجعلنا نندفع فى جنون الى غمار المعركة الفاصلة
قبل الموعد المحدد .

إننى لم أشاهد فى حياتى مثل هذا الإيمان العميق الذى يلفنا فى طياته
ونحن نتدرب فى هدوء استمداد لما ينتظرنا من أهوال .
أين هؤلاء الكفار الذين يقولون أننا غير قادرين على خوض هذه
المعركة الرهيبة ؟

لكم وعدت لو حضروا إلى هذا المكان واختلسوا نظرة إلى هذه العيون
اللامعة التى يكاد الشرر المتطاير من نظراتها يحرق كل شئ فى طريقه ،
ورأوا بأعينهم مقدار ما يبعثه أصحاب هذه الوجوه السمراء القوية من الرعب
والفرع إلى القلوب .

إننا نشعر بأن المعركة قد أصبحت على الأبواب وقد لا تتمكن
من الكتابة إليك مرة ثانية وأريد أن أنتهز هذه الفرصة لى اتوصل
إليك مرة أخرى لأن تفكرى ملياً فى الأسباب أجبرتني على تركك هكذا
ولا تلوميننى لأننى هربت منك لأقاتل دفاعاً عن المبادئ التى ظلت طيلة
حياتى جزءاً لا يتجزأ من روحى .

نانى . . . يامعبردى الفاتنة

إننى لا أجد فائدة من وراء قدح ذهنى للبحث عن بعض الكلمات الرقيقة
لكى اسوق بها حبسى إليك لأنك تعرفين أن مشاعرى نحوك لا يمكننى
التعبير عنها بالكلمات . .

أرجو يا حبيبتي أن لاتدعى اليأس يتسرب إلى نفسك فسوف لا يطول
انتظارنا وسأعود إليك قريباً وقد امتلأ صدرى بنسيم الحرية الجميل
لأعتصرك بين ذراعى ونعوض سوياً ما فاتنا من الأيام ونرتشف معا من
السعادة فى كؤوس الهناء المترعة ما يمكنه أن ينسينا هذا الانتظار .
حبيبتي ... لى رغبة أخيرة أود أن أهمس بها فى أذنيك . .

إننى أرجوك أن تكونى شجاعة وأن تتقبلى كل المحن القادمة فى

جلد و صبر و ایمان عمیق بالمستقبل الباسم الذى ينتظرنا ...

حبیبى ... اننى أعدك إذا رجعت سالماً ، اننا سوف لا نقفل أبواب
ممكننا قط وسوف ننام رغم ذلك ملء أجفاننا ونحن آمنين بأنه ليس
هناك من يجرؤ على اقتحامها فى ظلام الليل وإن لم أعد فتاكدى أن
روحى سوف تتبعك أينما ذهبت وتراقبك وأنت تسيرين فوق أرض الوطن
الذى سنكون قد حررناه بدمائنا .. تنقلين خطواتك بأقدام ثابتة وتشمتخين
بأنفك إلى السماء فى زهو وخيلاء .

(.....)



يا نصيب .. !!

ما أجمل الصداقة بين البؤساء إنه من الجميل حقاً أن يصنع الإنسان معروفاً حين يكون قادراً على ذلك .. ولكن بدون شك ..
ليس هناك أنبل من شخص يضحى بجزء من موارده القليلة لمساعدة صديق له في حين أنه أحوج ما يكون إلى المساعدة ..

جلس حسن على السور الحجري المنخفض على شاطئ النيل بالجزيرة
وأخذ يحدق في المياه الزرقاء المادئة الممتدة أمامه بنظرات ساهمة وهو أبعد
ما يكون عن الإستمتاع بجمال الطبيعة الرائع الذى يحيط به من جميع الجهات .
ورفرف طائر بجناحيه من فوق رأسه وسقطت على ملابسه بضعة
أوراق جافة فرفع عينيه المتعبتان وأخذ يراقب الطائر بحسد وهو يقفز
فرحاً بين أغصان الشجرة ولا يهدأ عن الحركة وقال لنفسه . . . ما أسعد
هذا الطائر . . . إنه حر طليق يمتلك كل شيء وينتقل من مكان الى آخر كما
يخلو له . . . يسبح في السماء الواسعة ويستنخر الهواء تحت ضربات جناحيه
الخفيفة ويبتلع طعامه بسهولة من أى مكان . . . لا يعرف الحزن ولا
يشعر بالجوع فى أى وقت . . . أما هو . . .

وتنهّد حسن من قلب مملوء بالأسى ورجعت نظراته الساهمة تحدق في
مياه النيل مرة أخرى وهو لا يكاد يرى فيها شيئاً .

وظل حسن فترة طويلة مستغرقاً فى أفكاره الحزينة ثم انتفض جسمه
بجأة كمن يفيق من حلم خفيف وابندأت قسبات وجهه تنبسط بالتدريج
وأشرقت فى عينيه نظرة لامعة مليئة بالعزم والتصميم وشعر بالراحة
تتسلل إلى جسمه الخائر عندما استقر رأيه على الطريقة التى سوف يضع بها
سداً لشقائه وتعباته . . .

وهز رأسه لنفسه مؤكداً للفكرة التى نبتت فى ذهنه . . . نعم
فلا توجد أمامه أية طريقة أخرى يمكن أن تنقذه من هذه السلسلة المتصلة
الحلقات من البؤس والفاقة .

وتساءل حسن . . . لماذا يعيش ؟

وبدت له الحياة في هذه اللحظة تافهة لا تستحق منه كل هذا العناء ولا ذلك الإصرار الشديد على التثبيت بأهدابها .

لقد كافح اليأس طويلا ولم يدع للوهن أى منفذ إلى جسده وظل أعواماً طويلة يتجرع غصص الحياة بروح قوية وعزيمة ثابتة لا تنزع وإيمان عميق بأن الأمور لا بد أن تتبدل في يوم ما وأن الفرصة ستتاح له لتحقيق أحلامه في حياة ناعمة يستطيع أن يغترف منها من الراحة والهناء ما يمكن أن يعوضه عن هذا الكفاح الطويل . . . ولكن الأيام مرت حتى أصبحت أعواماً . . . كانت كلها حافلة بالقحط والبؤس ، ولم يكف خلالها لحظة واحدة عن النضال وتجرع كؤوس الهوان والمذلة مترعة حتى أثرت جرعاتها القوية في روحه وعزمته كما يؤثر الخمر الرديء على الكبد الضعيف وجعلته وهو جالس في هذه اللحظة يحدق في مياه النيل ويقاب في ذهنه ماضيه البائس ومستقبله المظلم ، يشعر بعدم قدرته على الاستمرار في الكفاح أكثر من ذلك .

ومرت أمام عيناه ذكريات طفولته التعيسة ورأى نفسه وهو يقطع الطريق بين منزل والده الحقيق ومدرسته ورأسه الصغير يملوء بالأفكار والآمال السعيدة التي كانت دائماً تجعله لا يشعر بفقر الطريق المترب وهو يتصاعد إلى رأيه وتطرد عن أذنيه صدى عبارات الهزء والسخرية التي كان زملاؤه يلاحقونه بها كل يوم كلما وقعت أبصارهم عليه في ملابسه الرثة واصابع قدميه البارزة من حذائه البالي . .

كان والد حسن موظفاً في إحدى المصالح الحكومية عاش طول حياته في حيرة دائمة ومعركة مستمرة للتوفيق بين مرتبه التافهة وعائلته الكبيرة إلى أن هزمته المعركة في آخر الأمر ففضل الموت تاركاً زوجته من بعده وهي

تقلب الطرف حائرة بين يديها الخاويتين وابنها حسن وشقيقتيه .

وأحسّت والدته حسن كأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدرها عندما أرسلت إليها السماء من يتزوج ابنتها بدون أن يتكلف الطرفان شيئاً وركزت كل عنايتها واهتمامها في ابنها حسن وبذلت جهود الجبابة ولم تهدأ لحظة واحدة حتى جعلته يتم دراسته التي كان باقياً عليها عندما توفي زوجها عامان كاملان وهي تعلق عليه كبار الآمال وترقب بفارغ الصبر اللحظة التي سوف يتم فيها ابنها تعليمه ويشهد ساعده حتى يتحمل عنها أعباء الحياة ويوفر لها أسباب الراحة في أيامها الأخيرة .

وهو حسن كتفيه في الم عندما وصل هذا الحد من أفكاره وارتسمت على شفتيه ابتسامة مريّة وتساءل . . . ترى ماذا تقول عنه والدته الآن ؟ . لقد تركها حسن منذ ثلاثة سنوات في منزل زوج شقيقته الكبرى على أن يعود لأخذها بمجرد العثور على عمل في القاهرة . . . ومنذ ذلك الوقت لم يسمع عنها شيئاً .

لا ريب أن والدته الآن تلعنه في أعماقها . . . وقد غصت نفسها بالمرارة والالام . . . ولا تتوقف عن ذرف الدموع وهي ترفع يديها إلى السماء في يأس . . . طالبة منها أن تهدي لها قلب ابنها العاق الذي ينعم وحييداً بالحياة الرغدة في القاهرة وقد نسي والدته التي لا تسكاد تجد حبيباً يريح جسدها الضامر من تلك الملابس البالية التي لازمتها أعواماً طويلة .

ودق حسن الأرض في غيظ شديد . . . أنى لوالدته أن تعرف أن حال ابنها لم يكن بأحسن من حالها طيلة هذه الأعوام . . . وكيف يستطيع أن يخبرها عن آلامه وهي تنتظر الفرج على يديه . . . ومن له بمن ينقل لوالدته شطراً من حياته المظلمة ويقول لها أن ابنها لا يعرف أين ومتى يستطيع أن يسكت صيحات امعائه الجائعة ؟ .

ثلاث سنوات طوأل وهو يزرع الطرقات حتى حفيت قدماه وفي كل يوم منها يتبخر من رأسه جزء من أحلامه الذهبية التي كانت تملأه عندما قدم للقاهرة في أول مرة . . . وكان كل ما يلاقيه من البؤس والحرمان لا يؤثر فيه بقدر ما كانت تبعثه إلى نفسه ذكري والدته وهي تجلس كل يوم تحصى الساعات والدقائق إنتظاراً لأنبائه ، من العذاب .

وهزته نوبة من البكاء عندما تذكر كيف وقفت والدته والزهو يطل من عينيها وهي تودعه يوم رحيله إلى القاهرة . . .

لم يكن هناك من هو أسعد منها في تلك اللحظة . . . وكانت لا تهدأ عن الحركة والتنقل من مكان إلى مكان في سرعة ونشاط لتفرق على الجميع فيض من سعادتها التي شعرت بعجزها على كتمانها بين ضلوعها .

لقد هزت فرحة والدته وسعادتها كل شخص في بلدته الصغيرة ورأى كل فرد أن من حقه المساهمة في مساعدته فأهالت السلفيات على والدته من كل شخص حتى تمكنت من أن تجمع له عشرة جنيهات كاملة . . .

وعرض حسن على نواجذه وهو يستعرض في ذهنه وجوه الدائنين الذين يكونون في مجموعهم أكثر من العشرين شخصاً وهم يتوافدون على منزل زوج شقيقته ويأخون في طلب نقودهم وهم يسلقون والدته بالسنة حداد ويتهمون بها بالنصب والخداع . . . ولم يجد حسن في نفسه الشجاعة الكافية لأن يتصور كيف قابلت والدته الخاح الدائنين في طلب نقودهم ، ولا ريب أن زوج شقيقته قد ضاق ذرعاً بها الجيش الذي لا يتوقف عن قرع بابه في كل وقت والقي بوالدته إلى عرض الطريق . . . فهو لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . . . وحسن يعرف تماماً أن زوج شقيقته لا يكاد يجد ثمن طعامه إلا بشق الأنفس وهو إلى جانب ذلك مثقل بالأطفال ... والديون أيضاً . . .

وحرك حسن رأسه في قوة ليطرد منه هذه الأفكار الاليمية
وليمزج خيالة من التوغل فيها ثم ابتداء يستعرض حياته هو منذ أن وضع
قدماه على رصيف محطة القاهرة وهو يحمل بحرص في يده التي شهادته
المدرسية العريضة الجوانب وهي ملفوفة في إعتناء وفي يده اليسرى حقيبة
خشبية محطمة تحتوى على ملابسه القليلة ومن خلفه جمال يسير وعلى كتفه
لفافة كبيرة محزومة بأحبال غليظة تحتوى على فراشه المتواضع وفي جيب
سترته الداخلى أستقر باقى العشرة جنيهات التى زودته بها والدته قبل سفره
وفي رأسه أحلام وآمال تسكنى لأغراق العالم بأجمعه فى فيض من
السعادة والهناء ...

وانحنى حسن وأمسك بفص جاف من على الأرض وأخذ يحطمه بين
أصابعه فى عذف شديد وهو يتمتم بصوت مسموع ... أين هذا المستقبل
الباسم الذى كان يحلم به منذ سنوات ؟ وأين هذه الحياة اللينة السهلة التى
كانت صورتها تقفز إلى مخيلته فى كل مرة ينظر فيها إلى شهادته المدرسية
المتسعة الأرجاء ؟

لقد خيل إليه عندما قدم إلى القاهرة لأول مرة إنه قد انتقل إلى مكان
سحيق بعيد عن العمران وأحس وهو يطوف فى شوارعها كأنه يسير فى
صحراء قاحلة يوشك أن يموت فيها من العطش قبل أن يموت من الجوع
ولم يطالعه فى كل مكان إلا وجوه ناطقة بالعداء والحقد والكراهية ...
التى لم يدر لها تعليل إلى اليوم ...

كان أول شيء وجه حسن عنايته له هو البحث عن غرفة يتخذ منها
مسكناً ... وقد وجد بغية بسهولة على سطح أحد المنازل العتيقة فى
السبتية ، ورغم أن الحجرة كانت ضيقة الجوانب ولا يدخلها الضوء إلا من
فتحة صغيرة فى أحد جدرانها إلا أنه شعر بالراحة وهو يضع فيها حقيبته

ويفرد على أرضها المتربة فراشه القليل ، ولم تزعمه حقارة المكان
الذى يقع فيه المنزل ولا القسذارة التى تحيط به من كل جانب لأنه كان
مؤمناً بأنه سوف لا يملك طويلاً فى هذا المكان وسوف ينتقل قريباً إلى
مكان أنظف وأكثر راحة عندما يعثر على عمل .. أضف إلى هذا أن
الحجرة كانت لها مزاياها التى جعلته يقبل على استئجارها بدون تردد فقد
كان إيجارها الشهرى لا يزيد عن الخمسة عشر قرشاً ...

ولم يهدأ لحظة واحدة منذ أول يوم وصل فيه إلى القاهرة ...
ولم يترك مكاناً لم يذهب إليه وكادت أصابع يديه تتحطم من كثرة ما كتب
من طلبات الالتحاق إلى مختلف الأعمال وأوشكت أعصابه تنهار من كثرة
ما تعرض للإرهاق فى الإجابة على الأسئلة التى كان يقابل بها فى كل مكان ..
وتعب بعد مدة من التردد على الدواوين الحكومية ولم يعد فى
استطاعته أن يتحمل مزيداً من الاستقبال الفاتر الذى كان يقابل به فى أى
مكان يذهب إليه وشعر بأن ذهنه قد أصبح عاجزاً عن معظم ذلك الاستخفاف
العجيب الذى كانت طلباته تقابل به فى كل مكان .

كان الموظفون فى الدواوين الحكومية يقابلونه دائماً بهزة غير
مكترثة من اكتافهم ويخبروه فى ضجر أن يعود مرة أخرى بعد أيام ...
أما عدد هذه الأيام .. فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذى لم يتسكرم أحد
منهم على اخباره به

وعجب حسن كيف لا يشعر هؤلاء القوم بهذا الجوع القارس الذى
يفرى احشائه وكيف لم يلاحظوا هذه الصفرة الشديدة التى تعلو قسبات
وجهه النحيل والى توحى لكل من يراه بأنه قد لا يستطيع العودة مرة
أخرى ..

وبعد أن إقنع بعدم جدوى التردد على المصالح الحكومية وانه قد

أصبح معروفاً لجميع موظفيها وأحس بأنهم قد ضاقوا ذرعاً من غيائه وكثرة إلحاحه في السؤال، ركز جهوده نحو الشركات والمحلات العامة وكل مكان يمكنه أن يجد فيه عملاً عاجلاً .

وأتهبه المشى وانبثق الدم من ظهر أصابع يده لكثرة ما طرق من أبواب وابتدأت دماء الخجل تختفي من وجهه بالتدرج وهو يفتقل من مكتب إلى آخر ومن مكان إلى مكان حتى أيقن في آخر الأمر بأنه غير مرغوب فيه ...

وتهد حسن مرة أخرى في عجب وهو ينقل بصره بين نجوم السماء التي ابتدأت تظهر على صفحاتها الصافية بعد غروب الشمس وبين مياه النيل الغارقة في ظلام الغسق ثم اخذ يتابع سلسلة أفكاره ..

كان يخيل إليه عندما كان يتردد على الشركات والمحلات العامة أن كل من يقابله يحاول جهده الوقوف في طريقه ومنعه من الحصول على العمل الذي قدم من أجله ويشعره بأنه يطلب شيئاً ليس من حقه المطالبة به ، وفي نفس الوقت كانت تطالعه دائماً نظرات الإشمئزاز من ملابسه الرثة والسخرية من مظهره المزرى وكان يجد نفسه دائماً في حيرة في التوفيق بين ما يلقاه من كل فرد من عدم الرغبة في مساعدته للحصول على أى عمل يستطيع أن يوفر به لنفسه الإمكانيات التي تسكني لتحسين مظهره وبين نظرات السخرية والاشمئزاز التي كانت تقفز إلى العيون عند رؤيته .

وأطلق من صدره تنهيدة حارقة وهو يستعرض سلسلة الأعمال الحقيرة التي اضطر مرغماً في بادئ الأمر على قبولها لحاجته السريعة إلى ما يسد رمقه ثم صار يستجديها بعد ذلك في إلحاح بعد أن عز عليه الحصول حتى على مثل هذه الأعمال ..

كان قد يئس من العثور على عمل يحفظ له كرامته ويتفق مع مؤهلاته

الدراسية وأضطرت له الحاجة الى التماس أى عمل وفى أى مكان ، ولم يتردد فى قبول احقر المهن .. ولكن حتى هذا استكثروه عليه .. وقابل الجميع هذا الدخيل عليهم بنظرات الاستنكار والتعليقات الساخرة والسكات اللاذعة التى لم يكن امامه بد من ترويض نفسه على احتماها ، ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ووجد أن كل فرد لا يألوا جهداً فى السكيد له والعمل على الإلقاء به الى عرض الطريق فى كل مرة يتمكن فيها من الحصول على عمل .

والآن ... هاهو يجلس يحدق فى مياه النيل العميقة ... شريداً ضالاً لا يكاد يحس بوجوده أحد ... وليس هناك من يفتقده اذا حدث وتلاشى الآن فجأة من مكانه ..

وأخذ يتأمل حذائه البالى بنظرات حزينة وهو لا يشعر فى نفسه بأى حنق على الدنيا أو على كل الذين اساءوا اليه ، وانما كان كل سخطه موجه الى شخصه ... فلا ريب انه لا يملك من القوة والبراعة ما يمكنه من أن يشق طريقه فى الحياة بنجاح ويجعله يتمكن من أن يعيش لنفسه حياة ناعمة مترفة مثل اولئك القوم الذين يلح أصدواء عرباتهم ولهى تلعب فى الظلام من بعيد شاقة طريقها بسرعة مجنونه فوق كوبرى قصر النيل فى اتجاه المدينة ليلتقوا بانفسهم فى غمار ملذات الليل الصاخبة ، وشعر بالسكينة تسرى الى روحه عندما عرف بأنه سوف يتخلص هذه الليلة من كل هذا الشقاء ...

كان لا يستطيع العودة الى حجرته بأى حال فقد تكاثر عليه ايجارها ، وكان يسمع فى كل يوم من سباب صاحب المنزل ما يكفى لسداد ايجار حجرته أعواماً طويلة ... ولكن الامر لم يتوقف عند مجرد السباب بل تعداه الى التهديد وقد كاد صاحب المسكن أن يلقى به اليوم من أعلى المنزل ، ولم يستمع إلى توسلاته الملحة ولم يقبل أن يترك له من يدا من الوقت لسداد

ما عليه من الإيجار المتأخر ولم يتمكن حسن من اقناعه بحسن نواياه وإنه سوف يسارع الى سداد ما عليه بمجرد أن تتحسن أحواله ، ولم يلق صاحب المنزل بالا الى اعذاره ويرق قلبه له وينسى ولو لمدة قصيرة انه يريد منه إيجارا الى أن تتوفر له النقود الكافية لذلك ولم يهمله شيء أكثر من القروش القليلة التي سوف تثقل من جيب المستأجر الجديد الى جيبه ، ولم يتوقف صاحب المنزل دقيقة واحدة ليسأل نفسه عما سيكون عليه أمر حسن بعد أن يقذف به الى عرض الطريق بدون ماوى أو عمل وأمعاه تنلوى من الجوع ، ولم يشعر حسن بأى حقد على صاحب المنزل والتمس له الأعذار وقال لنفسه .. وماذا يهم صاحب المنزل من أمره ... ؟

وكان الى جوار صاحب المنزل عشرات آخرين من الدائنين فهناك صاحب محل الفلافل والبقال وبائع الخبز وغيرهم كثيرون ... وقد تعود حسن فى كل يوم ، عندما ينهكه التعب ويشعو بالرغبة الشديدة لراحة جسده ويعود مضطرا الى مسكنه ، على الوقوف بذله ومسكنه واسان متلحم بشتى الاغرار تارك كل الدائنين يتبادلون واحد بعد الآخر صارخين لائنين مطالبين بنقودهم ... وأما كيف يمكنه أن يدفعها لهم وهو عاطل عن العمل فهذا كان آخر شيء يفكرون فيه ... ولم يكن يهمهم على الإطلاق كيف يدفع لهم ما عليه من الديون وإنما كانوا يريدون نقودهم وكفى ..

ونفض حسن واقفا عندما وصل الى هذا الحد من أفكاره وقد لمعت فى عيناه نظرة تصميم ثابتة وسار فى اتجاه كوبرى قصر النيل وعندما وصل الى منتصفه توقف وارتكز بذراعيه على سور الحديدى وأخذ ينظر حوله فوجد الكوبرى خال تقريبا من المارة وليس به أثر للحياة غير بعض السيارات التى كانت تمر به بسرعة ولا تكاد تلقى إليه التفاتا . وخلع سترته ووضعها فوق الحاجز ثم رفع بصره الى السماء

وتتم بصلاة قصيرة وهم أن يصعد السور ليقذف بنفسه إلى مياه النيل ، عندما خطر له أن يترك في جيب سترته خطاباً لوالدته يودعها فيه ويشرح لها الأسباب التي أرغمته على عدم الاتصال بها ويطلب صفحها وغفرانها ، وشعر بأن هذا هو أقل واجب يجب عليه أن يفعله حيال والدته قبل أن يودع الدنيا إلى الأبد حتى تفهم موقفه على حقيقته ولا تظل تتابعه بأحداثها إلى آخر أيام حياتها ...

وفتش في جيوب سترته عن قلم وورق فعث على قلم صغير ولم يجد في جيبه ورقاً يصلح للكتابة غير ورقة بيضاء من أحد وجهيها وفردّها على الحائط الخديدي وكتب بسرعة بضعة سطور قليلة ثم تنهد بارتياح وأرجع القلم إلى جيبه . . . وبينما هو يطوى الرسالة بإعتناء وقعت أنظاره على الكتابة المطبوعة على الوجه الآخر من الورقة فضحك في سخرية مريرة عندما عرف فيها ورقة اليا نصيب التي ضحى منذ أيام بأخر قرش في جيبه ثمناً لها . . . ورقت عواطف حسن وغمرته موجة من الشكر والعرفان بالجميل عندما مرت بخاطره صورة سيد صديقه الوحيد .

كان سيد يقطن مع عائلته بنفس المنزل الذي يقع فيه مسكن حسن ويعمل خادماً في أحد المقاهي وقد نشأت بين الإثنين صداقة متينة . . . وقد ظل سيد يخص صديقه بكل اهتمامه ومساعدته بدون أن يتفوه بكلمة تدمر واحدة أو يصدر منه في أي يوم ما يمكنه أن يخذل إحساساته . وتنهد حسن بعمق وقال لنفسه . . . ما أجمل الصداقة بين البؤساء . . . إنه من الجميل حقاً أن يصنع الإنسان معروفاً حين يكون قادراً على ذلك . . . ولكن بدون شك ليس هناك أنبل من شخص يضحي بجزء من موارده القليلة لمساعدة صديق له في حين أنه أحوج ما يكون إلى المساعدة . وشعر حسن بمقدار وجوده عندما فكر في مفارقة الحياة من غير

أن يودع الشخص الوحيد الذي رق له قلبه من دون كل هذا العالم الاناني المحيط به .

وهن كتفه في ضيق وأخذ يفكر بعمق في هذه المشكلة وهو يبحث بالرسالة التي كتبها لوالدته في يده ، وهم أن يضع الورقة في جيب سترته بعد اقتنع تماماً بعدم جدوى هذا الوداع وأيقن أن من الخير له أن ينفذ ما اعتزم عليه في هذه اللحظة قبل أن تخونه عزيته ، عندما لمع في ذهنه خاطر فجائي ففرد ورقة اليانصيب ورفعها الى عينيه ووقف مدة طويلة يحدق فيها بنظرات تأثمة عندما عرف أن موعد سحب النمر الراجعة في اليوم التالي .

وتردد بعد أن طوى الرسالة مرة أخرى ووضعها في جيب سترته وأمسك بطرف الحاجز الحديدي ليرفع جسده ويتدف بنفسه إلى الجانب الآخر ، كأنما يقاوم فكرة خطرت في ذهنه . . . واستمر في تردده فترة طويلة وهو واقف يحدق في المياه المظلمة التي تجري من تحته وسأل نفسه . . .

— ماذا عليه لو أخر انتحاره يوماً واحداً ؟

إنه سوف لا يخسر شيئاً إذا فعل ذلك . . . ومن يدري فقد تريح الورقة فتتبدل حياته في غمضة عين ويصبح في غير حاجة إلى الانتحار ؟ .. ألم يلمح عليه سيد للتضحية بآخر قرش في جيبه لشرائها من أجل هذا السبب . . . ؟

ووجد حسن نفسه يمد يده ويتناول سترته ويرتديها ثم يستدير ويسير بخطوات متثاقلة عائداً إلى مسكنه .

وتنهك بإرتياح شديد عندما تمكن من التسلل إلى حجراته في هدوء بدون أن يشعر به أحد إذا كان الجميع قد آووا إلى فراشهم ، وبعد أن

أقبل الباب ورأته بدون صوت التي بجسده المتعب على فراشه الخشن، وسرعان
ما كان يغط في سبات عميق .

واستيقظ متأخراً في صباح اليوم التالي وفتح عيناه بكسل ثم قفز
واقفاً وتناول وعاءاً من الصفيح به بعض الماء موضوعاً في أحد الأركان
وبعد أن اغتسل وارتدى خذائه خرج من الحجرة وهو يرجو أن يتمكن
من الخروج بدون أن يلاحظه أحد .

ومضى وقت طويل قبل أن يجد حسن نفسه في الشارع وجسده يتصبب
عرقاً وهو يعزى نفسه بأن هذه هي آخر مرة سيتعرض فيها لمثل هذه
المحن القاسية ويجد نفسه مضطراً للوقوف والإنصات بذله إلى مطالبات
الباثنين وسبابهم .

وقرر الذهاب إلى المقهى الذي يعمل فيه سيد وأن يجلس هناك بعض
الوقت حتى يكشف على ورقة اليانصيب . . فاذا ربح . فسوف لا يكون
في حاجة إلى وداع صديقه . . وإذا لم . .

ودق الأرض بخذائه بقوة وأوقف أفكاره عند هذا الحد . .
ورحب به سيد كعادته وأصر على أن يشاركه طعام أفكاره الرخيص
الذي كان جالسا يتناوله عندما دخل حسن إلى المقهى ، وبعد أن فرغ
الإنسان من ذلك تركه سيد جالسا بمفرده ومضى ليستأنف عمله . . ثم
رجع إليه بعد دقائق وفي يده قدح من الشاي الساخن وضعه أمامه على
المنضدة وابتعد مسرعاً قبل أن يسمع عبارات الإحتجاج وكلمات الشكر
التي كاد حسن يهم على النطق بها .

وشعر بقواه تعاوده بعد أن ملاء معدته وشرب قدح الشاي
وأحس بدماء الحياة تسرى في عروقه وأخذت أفكاره تدور حول ورقة
اليانصيب الراقدة في جيبه . . وابتدأ الأمل الشاحب الذي غزاه بالأمس

يتضخم ويتسع حتى ملاء عليه جميع مشاعره ، وازدادت دقات قلبه
عندما عرف أن حياته معلقة على مصير هذه الورقة .

ومضى الوقت وهو جالس يفرك يديه بعصبية وقلق شديد ويبتهل
إلى السماء أن تريح ورقته ، وأخذ يترقب مرور بائع اليانصيب وهو يدور
في مكانه بضيق واللهفة تكاد أن تقتله .

وعاوده الأمل في الربح . . وابتدأ شعاع باهت من الراحة يتسالى
إلى روحه المعذبة . . وتساءل لماذا لا يربح ؟ . إن السماء تعلم أن حياته
معلقة على ظهور رقم ورقته في أعلا كشف النمر الراجعة ، فكيف يمكنها
أن تتخذه ؟ ألم تهبه السماء الحياة من قبل ؟ فهل يعقل أن تتخلي عنه في هذه
اللمحظة الدقيقة من حياته . . ١١

وتمنى لو أن الذين يقومون بوضع الأرقام الراجعة يعلمون مقدار ما
يعنى ربح ورقته إليه ، إنهم لو علموا أنهم سيهبونه الحياة بهذا الربح لما
ترددوا لحظة واحدة في إعطائه الجائزة الأولى . . إن هذا لا يعنى شيئاً
بالنسبة إليهم . . إنهم يضعون عشرات الأرقام الراجعة في كل يوم . . وإن
يكون رقم ورقته إلا واحداً من هذه العشرات . . .

وتنهبد في كآبة وضيق . . وظل جالساً يدق الأرض بقدمه
بحركات عصبية . . وعندما أتت الساعة الحادية عشر كانت أعصابه قد
انهارت تماماً وأصبحت مشاعره موزعة بين اليأس والأمل . . وثارت في
أعماقه غريزة حب البقاء قوية جارفة إكتسحت كل ما كان قد عزم
عليه بالأمس .

وبقشة تصلب جسده وخفق قلبه في عنف عندما رأى بائع
اليانصيب يظهر من بعيد ، وأخذ يتابع البائع بعينه وهو يسير في خطوات
متكئة متوقفاً بين كل خطوة وأختها في غيظ ويقول لنفسه ، ألا يستطيع

هذا الوغد الإسراع قليلا في مشيته ؟ ألا يحس بالهيب النار التي تشتعل في كل عضو في جسمه من القلق والترقب وتكاد أن تحرقه ؟

وخيل إليه أن دهرأ كاملا قد انقضى قبل أن يقف أمامه بائع اليانصيب فدعا إليه بصوت مرتجف وأبرز له الورقة من جيبه طالبا منه كشف النمر الراححة الخاص بها ، ولم يصبر حتى يناوله له بل مذيده واختطف السكشاف من يد البائع وأمسك به بين أصابعه المراتشة وأخذت يده ترتجف بشدة وقلبه يكاد يكف عن الخفقان وهو يجيل عينيه الزائغتين في رقم ورقته

ولم يرفع حسن رأسه في الحال عن ورقة اليانصيب التي في يده بل مضت فترة قصيرة قبل أن يرسل عينيه إلى كشف النمر الراححة كأنه يشفق على نفسه من النتيجة . . .

وظلت عيناه مسمرتان على السكشاف المفرد بين يديه وابتدأت الدماء تهرب من وجهه وخيل للنظر إليه أنه يوشك أن يسقط مخشياً عليه في مكانه . . .

وبحركات آية لا أثر فيها للحياة أعاد حسن السكشاف إلى بائع اليانصيب ثم أخذ يكور الورقة بين يديه بدون وعى، ثم وقذف بها إلى أرض المقهى في يأس كما يقذف الانسان بآخر آماله في الدنيا . .

وظل وقتا طويلا جالسا في مكانه وهو جامد لا يتحرك وعيناه تحدقان في سقف المقهى وهو لا يكاد يرى شيئا من خلال ستار الدموع الذي يظلمهما وبالرغم من أنه كانت قد عزم على انتهاء حياته في الليلة الماضية إلا أن تأثير الصدمة كان شديداً الوقع على نفسه بعد أن ظل ساعات كثيرة يمتنى نفسه بالآمال والأحلام . . وشعر بعد أن انهارت آماله دفعة واحدة وبعد أن أندفع إلى حب الحياة مرة أخرى كغريق متخبط يطلب

النجدة ويبحث عن أي حمام ، بيأس قاتل يجترفه وبخفية مريرة تملا شرايينه .
ونهض من مكانه وتحرك صوب باب المقهى وهو يعجز أقدامه من خلفه
وقد انحنى ظهره وبدأ كمنجوز حطمته السنون ، وأخذ وهو في طريقه إلى
الخارج يمر بنظراته على كل قطعة في المقهى يحزن كأنه يودعها الوداع الأخير .
— حسن أفندي . . . يا حسن أفندي . . . !

توقف حسن بعد أن كان قد قطع مسافة كبيرة مبتعدا عن المقهى
ونظر خلفه ليرى من الذي يهتف باسمه فشاهد سيد يمدو إلى ناحيته في
سرعة كبيرة ثم يقف أمامه وهو لاهث الأنفاس ويمد إليه يده بمظروف
متوسط الحجم صائحا بحماس وبصوت متقطع من أثر الجري
— لقد وصل هذا الخطاب الآن وهو مضمون باسمك ...

ومد حسين يده في غفلة واختطف المظروف من يد سيد والقي عليه
نظرة سريعة ودق قلبه بشدة عندما لمح في ركن منه اسم أحد المحلات
التجارية التي كان سبق له التقدم لأداء امتحان فيها لوظيفة كاتب حسابات
شاغرة وتذكر أنه كان قد أعطى لهم عنوان المقهى لأن منزله لم يكن له
عنوان معروف .

وظالت نظراته مثبتة على المظروف مدة طويلة وهو يخشى أن
يفتحه خوفا من أن تبعث محتوياته إلى نفسه بآمال جديدة لا يستطيع
أعصابه أن تتحملها ولكنه لم يستطع مقاومة فضوله فمد يده في آخر الأمر
ومزق طرف المظروف وأخرج من جوفه ورقة مطوية فردها بين يديه
وأخذ ياتهم سطورها في سرعة كبيرة .

واهتزت يده وظهرت على وجهه دلائل الإنفعال الشديد ،
وابتدأت الدماء تصعد إلى وجهه . . . وبغثة رفع رأسه وانقض على سيد
وأخذه بين أحضانه وأخذ يدور به في الشارع كالجنون وهو يصيح
بفرح شديد

— لقد حدثت المعجزة أخيراً ياسيد ..

وغلبه الإنفعال والحماس فلم يتم حديثه وأخذ يتابع الدوران بصديقه في الشارع حتى لفت اليهما الأنظار .

— ما هذا الذي حدث ؟ وعن أى معجزة تتكلم ؟

تمسك سيد من التفوه بهذين السؤالين في آخر الأمر بعد أن هدأت حدة انفعال حسن .. فتنبه هذا الأخير إلى نفسه وفطن إلى نظرات المارة المتسائلة فاعتراه الخجل وسيطر على مشاعره وأمسك بسيد من يده واستدارا راجعين إلى المقهى وهو يقول له

- أنت تعرف أنني قد سبق لي أن أدت امتحانات عديدة في محلات تجارية كثيرة، وهذا الخطاب الذي وصلني الآن من إحدى هذه المحلات يقولون لي فيه أن اختياريهم قد وقع على لملء الوظيفة الشاغرة عندهم ويطلبون مني التوجه إلى مقر الشركة بمجرد وصول هذا الخطاب إلى يدي لأتسلم العمل وتنهض حسن بصوت عال ثم أردف كأنه لا يصدق نفسه وهو يرتب على كتف سيد بلطف

- لقد كان هذا الخطاب مفاجأة حقيقية لي .. بعد أن يئست من طول

الانتظار ...

ولم يكن حماس سيد وفرحه لانتهاى متاعب صديقه بأقل من هذا الأخير .. وظل ينتقل بين المناضد بخفة وهو يزجي الخبر المفرح إلى كل إنسان ...

واستأذن حسن صديقه في الإنصراف والتوجه إلى مقر إدارة الشركة لتسلم عمله ، فشد سيد على يده مشجعاً ثم أسقط في جيبه ورقة مالية ذات فئة صغيرة ، فاغرورت عيناه بحسن بدموع الشكر واستدار خارجاً وتوقف قبل أن يخطو إلى خارج المقهى ورجع ثانياً إلى الداخل

وانحنى وأخذ يفحص الأرض بنظراته كأنه يبحث عن شئ مفقود ثم تنهد
في ارتياح عندما لمح ورقة مكورة ملقاة في أحد الأركان فضى إليها
والثقلها في عناية وفردها في حرص شديد . . .

ولا تزال ورقة اليانصيب معلقة الى يومنا هذا في إطار جميل في
مسكن جسن افندى الاثيق . . . وكان لا يفتأ أن يردد على مسامع زوجته
كلاما وقعت أنظاره عليها

- ما أرفع الخيط الذي ربطنا الى الحياة يا حبيبتي . . . هل تصدقين أن
هذه الورقة التافهة قد أنقذت حياتي في آخر لحظة بعد أن أطبق اليأس
على من جميع الجوانب ؟

فنبهتهم زوجته دائماً في حنان وتقول
- لم تكن ورقة اليانصيب هي السبب يا عزيزي . . . انه الأمل . . .

قريباً جداً . .



فتح جرىء في عالم القصة المصرية الطويلة

الشمس الرخيص ١١٩٠٠

وتخدر جسده وأحس كأنه يسبح في حلم لذين يرى نفسه فيه
يبيع حياته إلى فتاة نبيلة القسمات حلت رأسها بتاج أنيق كانت
كانت لآله الثمينة تشع في عينيه ببريق يخطف الأبصار ، وقد وقف
أمامها حشد كبير من أعداء بلاده يطل اليأس والمرارة من نظراتهم
الخانقة وهم يدفعون للفتاة ثمن حياته ، وأدهشته تلك الأكوام
الهائلة من النقود والجثث التي إنحنت الفتاة تفحصها بعين الخبير
وعلى شفقتها ابتسامة راضية . . .

كان الطريق المرصوف يلعب تحت أشعة الشمس الذهبية عندما كانت
عربة الأمانديوس منطاقة تشق طريقها بسرعة في طريق السويس الصحراوي
وعلى الجانبين امتدت الرمال الصفراء إلى أبعد مدى يصل إليه البصر وفي
جوف العربة ارتفعت أصوات الركاب مختلطة ببعضها وهي تتبادل الحديث
في قلق وانفعال ...

كانت الأنباء تترى عن إعتداءات القوات الإنجليزية المتكررة على
المسافرين وتسبب في تفصيل ما يتعرضون له من المذلة والهوان عند
نقط التفتيش التي أقاموها في مدخل السويس ، والإشاعات تنتشر بسرعة
البرق عن الحوادث الفظيعة التي يقوم بها الجنود ضد المواطنين العزل منذ
الغاء معاهدة سنة ٣٦ في ٨ أكتوبر الماضي ..

وفي ركن العربة جلست امرأة وقور في الحائقة الرابعة من العمر
وبجوارها جلس طفل صغير لا يتجاوز الثانية عشر عاماً وقد خيم عليهما
الصمت ، والمرأة تتأمل في مكانها بقلق وتفرك يديها في حزن شديد غير
ملقية انتباهها إلى حديث الركاب بل كانت أفكارها تسبح بعيداً حيث
يرقد ابنها الشاب في إحدى مستشفيات السويس يعاني الآلام من جراء
إصابة حدثت له أثناء العمل ...

وإهتزب العربة قليلاً فالتصق الطفل بوالدته ، ولم تشعر بهذه الأخيرة
بل استمرت تحقق بنظراتها الساهمة خارج نافذة العربة وهي غارقة في
أفكارها الحزينة .

كانت السيدة تلقى باللوم على نفسها لأنها أذعنت لرغبة ابنها الأكبر وتركتـه وذهبت الى القاهرة بصحبة شقيقه الأصغر لتمكث عند أقاربهم هناك حتى تستتب الأمور في السويس ويعود اليها الأمن والطمأنينة اللذان فقدتهما بعد الغاء تلك المعاهدة المشؤمة ...

وعضت السيدة على شفقتها في ألم وقالت لنفسها .. كان يجب أن لا أستمع اليه ، وأخذت تحتقر نفسها لأنها اقتنعت برأيه وسافرت للقاهرة خوفاً على حياتها وكان ضميرها لا يفتأ يؤنبها ويسألها موبخاً - هل حياتها آثمن من حياة ابنها ١١٤

وهزت رأسها في عنف وصرخ صوت في أعماقها مجيباً - كلا .. كلا .. إنها تفضل أن تقتل عشرات المرات قبل أن يصاب ابنها بخدش واحد . وشعرت بمقدار جرميتها في حق ابنها .. أهكذا يجب أن تكافئه ؟ أنه لم يدخر جهداً بعد وفاة والده لتوفير أسباب العيش لها ولأخيه الصغير ولم يتردد في قطع دراسته والسفر إلى السويس بدعوة من أحد أقاربهم الذي تمكن من أن يلحظه يعمل في إحدى شركات الملاحة البحرية ، وعوضها من حنانه ورعايته ما فقدته ب وفاة زوجها ... وبعد كل هذا لا تتردد هي في الهرب من جانبه لمجرد خطر تافه لاح في سماء حياتها ...

وأحست السيدة بالحقد يملأ قلبها على أولئك القوم الذين دفعوها أعمالهم إلى فراق ابنها الحبيب ، لقد كانت تعيش سعيدة مع ابنها راضية بما ترسله اليهم السماء من رزق قليل حتى ذلك اليوم الذي ألغيت فيه المعاهدة وأصبحت السويس كفوة بركان على أهبة الانطلاق في أية لحظة .

ولم تسمع السيدة إلى التحذيرات التي أنهالت عليها عندما عازمت على الرجوع إلى السويس بعد أن وصلتـها أنباء إصابة ابنها وذهابه إلى المستشفى ، واستنكرت أن يحاول القوم منعها من السفر والطيران والبقاء إلى جوار

ابنها الحبيب والسهر عليه في محنته ، ولم يملك الجميع إزاء تصميمهما القاطع إلا السماح لها بالذهاب ..

وقطع على السيدة حبل أفكارها وقوف عربة الالمنديوس ، فتطلعت ببصرها من النافذة المجاورة لها فوجدت العربة تقف في ذيل صف طويل من السيارات المختلفة ولحمت في أول الصف عدداً كبيراً من الرجال يقفون في طابور طويل فعرفت أنهم قد وصلوا إلى إحدى نقطة التفتيش الرهيبة . وأخذت عربة الالمنديوس تتحرك من مكانها ببطء كلما خلا أمامها مكان لإحدى السيارات وقد عات في داخلها أصوات الركاب وهم يتبادلون التعليقات على ما سيحدث لهم عند التفتيش وقد بدت في أعينهم نظرات واجمة . وأخيراً جاء دور عربة الالمنديوس وأحاط بها من جميع جوانبها جنود حمر الوجوه مدججين بالسلاح سعد بعضهم إلى العربة وصاحوا في الركاب بخشونة وهم يشيرون لهم بالنزول ...

والتصق الطفل الصغير بوالدته وقد استولى عليه الفزع فربت هذه على كتفه مهدئة وهي تحاول إقناع نفسها بأن هؤلاء القوم سوف لا يعيروها انتباهاً ... فإذا يطالبون من سيدة ضعيفة وطفل صغير ؟

وابتداً الخوف يزحف إلى مشاعر السيدة وشعرت بأنها قد سموت في مكانها وهي ترقب في رعب كيف أخذ الجنود يقذفون بخشونة الركاب إلى خارج العربة حتى خلت تماماً إلا منها ، وفي اضطرابها لم تدر ماذا تفعل فالتكتمشت في مكانها وهي تحتضن ابنها بشدة كأنما تلتمس منه شجاعته التي كانت قد فارقتها في هذه اللحظة ..

واقترب أحد الجنود من السيدة وصرخ فيها بصوت خشن وقال لها بضعة كلمات بلغة لا تفهمها ، فأخذت تحديق فيه بحيرة فلما وجدها لم تتحرك من مكانها لكنهما بكعب بندقيته وأشار إلى باب العربة

فصرخ ابنها من الهلع فاحتضنته بين ذراعيها وأخذته من يده ونزلات
إلى الطريق ..

ووقفت السيدة في خارج العربة وهي تدور بنظراتها من حولها في
رعب وجسدها يهتز بشدة ، فامتدت يد أحد الركاب وجذبتها إلى داخل
الطاوور الطويل فوقفت وهي تشعر بأن قدميها عاجزتان عن حملها ...
وأخذت السيدة تنقل خطواتها بحركات آليه وراء المصطفين أمامها
حتى جاء دورها للتفتيش فوقفت كالمندهولة أمام جندي الضخم الجثة أحمر
الوجه يعاق على كنفه مدفعاً رشاشاً نظر إليها بقعة وابتدأ يتحسس
جسدها بحركات دنيئة لإقشعر لها بدنها ، وحاولت أن تلطمه ولكن الرعب
الذي استولى عليها من المدافع المصوبة نحوها شل كل جزء في جسمها
عن الحركة ...

واستمر الجندي في تفتيشها في ببطء قاتل وهي ترتجف في وقفاتها وكل
جارية في جسدها تصرخ اشمئزاً من هذا الإعتداء المبهين على كرامتها
وهي تسكاد تسقط مغشياً عليها في مكانها ...

وصاح الجندي الضخم الجثة بعد أن فرغ من تفتيشها ودفعها إلى جانبه
وأشار إليها بالانتظار ، منادياً أحذر ملائنه ثم تبادل معه حديثاً قصيراً ابتعد
على أثره هذا الأخير متجهاً نحو إحدى الخيام القريبة .

وعاد الجندي بعد فترة قصيرة واقترب من زميله الضخم الجثة وهمس
في أذنه ببضعة كلمات انفجر على أثرها الأخير ضاحكاً ضحكة فاجرة ثم أمسك
بالسيدة من يدها بخشونة وأخذ يحرقها ناحية الخيمة فاستولى عليها الجنون
وأخذت تقاومه في عنف وسرعان ما أحاط بها عدد كبير من الجنود أخذوا
يدفعونها دفعاً إلى داخل الخيمة ...

وصرخ الطفل الصغير وهو يلطم والدته تختفي في جوف الخيمة
وحاول اللحاق بها ولكن أحد الجنود لطمه على وجهه لكمة قاسية جعلته

يتدحرج على الأرض ، ثم يرجع إلى الوراء قليلاً وشهر مدفعه السريع
الطلقات في وجوه ركاب عربة الأمنيبيوس فتدافع هؤلاء إلى داخل
العربة في رغب واضطراب بينما تقدم أحد الركاب والتقط الطفل من على
الرمال ورفعته بين ذراعيه ، والطفل لا يكف عن الصراخ وضرب الهواء
بقدميه وحمله إلى داخل العربة ، وقبل أن يفكر أحد في مصير المرأة
التعيسة أخذ الجنود يطلقون الرصاص في الهواء يجنون ، فانطلق السائق
بالعربة في سرعة كبيرة كما لو كانت الشياطين تطارده ...

وعندما وصلت عربة الأمنيبيوس إلى السويس ذهبت بركابها إلى
المحافظة وأبلغت البوليس عن الحادث وتطوع أحد الركاب - بعد الانتهاء
من الإجراءات المعتادة في مثل هذه الأحوال - لحمل الطفل الصغير الذي
كان قد فقد وعيه واحمرت عيناه من كثرة البكاء إلى منزله بعد أن
استطاع أن يتزع بصعوبة من بين شفتيه المرتجفتين محل إقامته .

ومضى على هذه الحادثة شهر كامل قبل أن يخرج أنور - ابن السيدة
المفقودة - من المستشفى بعد أن استعاد صحته ليجد أخاه الأصغر راقداً
يئامى من ألمي ويهلى بكلام غير مفهوم في منزل أحد جيرانه ، واستولى
عليه الجنون عندما عرف بما حدث لوالدته وأسرع إلى المحافظة ولسكنه لم
يجده هناك من المعلومات ما يمكن أن يشفي غليله ، ولم يستطع أحد أن يمدّه بقبلاً
يمكنه من معرفة أى شيء عن مصير والدته بعد اختفائها ، فسار يزور
الطرق بخطواته باحثاً منتقياً في كل مكان يمكن أن يجد فيه خبراً عنها ،
ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل وبدأ له كما لو كانت والدته قد تبخرت
في الهواء أو انشقت الأرض من تحتها وابتلعها ...

وجلس أنور بعد اسبوع من خروجه من المستشفى على أحد المقاهى
يتطلع إلى عربات الجيوش الانجليزية المصفحة وهي تطوف في شوارع

المدينة ودماءه تغلى في عروقه كالرصاص المصهور .
كان لا يبكي والدته الآن ، لقد تأكد له تماما من أن والدته
قد اختفت الى الأبد في جوف حفرة في رمال الصحراء الواسعة ، واكتسح
الحقد والرغبة الغنيقة في الانتقام من مشاعره كل إحساس بالأسى والحزن
على نهاية والدته القسوة ...

كان جالسا في هذه اللحظة يعمل ذهنه في سرعة وهدوء وهو يحس بروح
والدته الطاهرة ترفرف من فوق رأسه وتهيب به للانتقام لشرفها الجريح
وجسدها الطاهر الذي دنسه الأوغاد بأيديهم القذرة ...

ودق المنصدة التي أمامه في عنف حتى كاد يحطمها ، وأخذ يطرد
من رأسه عشرات الخطط التي يمكنه أن ينفذها انتقامه الرهيب ، وبدأت
له جميعها فجأة لا تطفئ النار المستعرة في دماؤه ، وكان يريد أن يكون انتقامه
من الإنجليز هائلا مروعا يهز الأرض تحت أقدامهم ويحطمهم يخففون
من حدة أعمالهم الطمعية ...

وظل جالسا في مكانه مدة طويلة وهو يدور حول نفسه في قلق
وضيق ثم اشرق وجهه بفتة وبدأ عليه كما لو كان قد استقر على رأى معين
فنهض واقفا من مجلسه وأخذ يطوف في أرجاء المدينة وبعد ساعتين كان
يتسلل إلى منزل متواضع المظهر في أحد أحياء البلدة الهادئة برفقة أحد أصدقائه
وجلس انور على أحد المقاعد الخشبية في حجرة ضيقة وهو يدور في مقعده
حول نفسه في نفاذ صبر ثم نهض واقفا عندما فتح باب الحجرة ودخل
إليها صديقه برفقة شخص طويل القامة متين البنيان مهيب الطلعة اسمر الوجه
بادىء القوة لعينية نظرات نفاذه لا يملك المرء امامها الا ان يغض من بصره
وبعد ان تبادل الجميع كلمات الترحيب المعتادة في اقتضاب جالس الرجل
يستمع الى قصة انور في صمت ثم هز رأسه ببطء عندما كاشفه هذا الأخير
بالسبب الذي قدم اليه من أجله وقال له بهدوء

إننى على استعداد لمديد الممونة اليك وإعطائك كل ما تطلب من المفجرات والأسلحة ولكن . . .

وتردد الرجل برهة ثم استطرد .

— ولكنى أرى أنك إذا انضممت إلينا وعملت تحت لوائنا . . فانك سوف تنتقم لوالدتك عشرات المرات لأننا نعمل تحت نظام دقيق ولا نتحرك إلا لتنفيذ خطط مرسومة و . . .

فقال أنور بأدب مقاطعاً .

— إننى أشكرك يا سيدى على كرمك ولكنى عقدت العزم على تصفية حسابى مع الانجليز بمفردى وإذا قدر لى ورجعت من مهمتى سالماً فمق من أنى سوف لا أتردد دقيقة واحدة عن الإضمام اليكم لأن رغبتي فى الانتقام لوالدى ستظل تحرق دماي طالما فى جسدى عرق ينبض بالحياة .

فتطلع اليه الرجل بنظرات فاحصة ثم سأله

— ولكن ماذا تنوى أن تفعل ؟

وتردد أنور كان يعرف أنه يستطيع الثقة بهذا الرجل ، ولكن الظروف المحيطة به كانت تجعله يشك فى كل شخص ، ووجد نفسه يقول .

— سوف أعرف ذلك فى الوقت المناسب ياسيدى ، أما الآن فأنا أرجو

أن لا يضايقك إذا احتفظت بهذا السر لنفسى

فهو الرجل كتفيه فى قلة اكترات ثم قال بلهجة الهادئة .

— أنت وشأنك . . . ولكن تذكر . . . أننا ندافع عن غرض اسمى

من الانتقام لوالدتك، واننا إذا كنا نحن نقاتل الآن بوحشية وبكل ما نملك من قوة فليس ذلك لأجل الانتقام لفرد واحد وإنما لنتقم لعشرات الألوف من إخواننا الذين هدرت كرامتهم على عمر السنين وسقطوا يتضرعون فى دماهم ضحايا أبرياء لأنهم أرادوا أن يعيشوا كما خلقهم الله أحراراً . .

— إننى أريد الانتقام لوالدتى وكفى ١١٠٠

— اتعنى أنك لم تفكر فى الانتقام من الانجليز إلا بعد أن لحقتك

شرهم فى شخص والدتك ؟

— نعم ..

— إن هذا هو منتهى الأنانية .. ألم تر بعينك من قبل كيف

يتساقط المصريون من رصاص مدافع الإنجليز الرشاشة كأوراق الشجر

فى الحريف ؟ ألم يبعث إلى مشاعرك مرأى دماء الضحايا الأبرياء وهى

تتلطخ الشوارع فى كل مكان الرغبة التى تجيش فى نفسك الآن ؟ .

فقال أنور وقد بدأ عاياه الهياج .

— أرجو أن أوضح لك شيئاً يا سيدى ... لقد رأيت عشرات

المواطنين يقتلون وهم يسىرون آمنين فى الشوارع بدون ذنب ! جنوه ..

وشاهدت كيف يحتدى الجنود الإنجليز بوحشية على كل فرد لمجرد التساية ..

ولكنى لم أستطع أن أفهم لماذا يفعلون ذلك ؟ ولماذا لا توجد مقاومة

منظمة ذات أثر فعال تحد من تصرفاتهم الهمجية ؟ وتلفت من حولى باحثاً

عن إجابة لهذه الأسئلة الحائرة فهالنى الأمر ... ووجدت أنه من الأوفق

لى أن أنجو بنفسى بعيداً عن هذه المهزلة التى تمثل أمام أعين الجميع فى

قحة وتبجح بعد أن رأيت كل شخص يسير فى الاتجاه الذى تمليه عليه

مصالحه الخاصة وأهواؤه الشخصية ... وكأن الأمر لا يعنيه فى شيء .

— ولكن الصحف تقول أن المسؤولين قد أحكموا وضع خططهم

وأعدوا لكل شيء حسابه ...

— صحيحاً لهذه الصحف ... انها تتكلم كثيراً ونجدها جميعاً مزينة

بالعناوين المثيرة وصفحاتها عامرة بالتصريحات الخطيرة المتضاربة والمواضيع

الانشائية البليغة والكلام الأجوف مما يضطر المرء لأن يجد نفسه

حائراً بينها لا يعرف أى واحدة منها يصدق ولا يكون أمامه غير الإنصات إلى ملايين الإشاعات التى يتناقضها الجميع ويرددونها فيما بينهم فى ثقة الغريق الذى أمسك بحبل النجاة ...

وصمت أنور برهة ليلتقط أنفاسه ثم استطرد .

- وليس من الغريب بعد كل هذا أن تجد الجميع ياتمسون الهرب من الميدان وقد تبلبلت أفكارهم وأصبحوا لا يعرفون ما هو واجبهم فى مثل هذه اللحظة الخطيرة من تاريخ حياة بلادنا ، ويشقون ثقة عميأء فى لو أن الانجليز كانوا يعرفون بأنهم سوف يدفعون ثمن كل هذه الإعتداءات غالياً لما تمادوا فى تدوانهم يوماً بعد يوم وأن ...

وقاطعه الرجل بحركة خفيفة من يده وهو يقول .

- كفى ...!! دعنا لا نطرق هذا الموضوع مرة أخرى ، اننى مثلك أسمع كثيراً من الإشاعات ولكنى لا ألقى بالآلى ما يتهامس به الجهلة من الناس ، ولا أصدق أى نبأ إلا بعد أن اتأكد تماماً من صحته . لأننى أعرف أن الانجليز قوم نبغوا فى فنون السياسة الملتوية وتعودوا على كسب كثير من المعارك بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة ، وذلك باستعمال أسلحة أشد فتكاً من القنابل المحرقة والغازات السامة ، وكلامك الآن هو خير برهان على أنهم قد نجحوا فى مهمتهم بتفوق فانت تقول انك الآن حائر لا تدري ماذا تفعل ، وهذا هو تماماً ما يرمى اليه الانجليز من وراء بذر الإشاعات والأكاذيب المضللة ...

وحاول أنور ان يقاطعه ولكن الرجل أوقفه بإشارة من يده ثم

استطرد قائلاً .

- أنا اعرف ماذا تريد ان تقول ... وأنا لا اجزم لك بأن من بيدهم

مقاليد الأمور عندنا يبعدون عن مواطن الشك فهذا شىء يلبسه كل من

عنده اقل فهم الامور .

وصمت الرجل لحظة ونظر إلى انور بعينه النفاذتين ثم ربت على كتفه بلطف وقال .

- سوف أسدي اليك نصيحة يا بني ، فقد تجدى فيك هذه النصيحة وتجعلك تتحول بحماسك للإنتقام لمصير والدتك الثعسة إلى غرض أسهى وأنبل ... وتردد الرجل برهة قبل أن يقول .

- هل أتعرف أننا نقاتل بوحى من أنفسنا وليس هناك أحد يدفعنا الى ذلك ، واننا نلاقى أشد الصعوبات فى الحصول على ما يلزمنا من الأسلحة والذخائر ونضطر فى غالب الأحيان الى القتال بالأسلحة البدائية وبالخناجر او بما نسرقة من أسلحة الإنجليز أنفسهم . . ؟ وبأيت أن الأمر قد وقف عندهذا الحد ، لقد حاولت جهدى أن أضخم جميع الفدائيين تحت قيادة واحدة منظمة تكون فى مجموعها قوة مرعبة تفلق راحة الإنجليز وتبعث الفرع إلى قلوبهم ، ولكنى لم أفلح رغم ما بذلته من تعب فى هذا السبيل وذلك لأننى وجدت كل فرد يريد أن يظفر وحده بالتصفيق والتهليل . . . وهكذا تضيق قضية الوطن وتمزق ..

وابتدا صوت الرجل يعلو ويشدد حتى غدت نبراتة كحد السيف وهو يتابع حديثه .

- ولكنى رغم على لكل هذه الحقائق فإنى لم أتردد لحظة واحدة فى القيام بالواجب الذى يمليه على ضميرى إن امامى كرامة وطنى الجريح فى كفة الميزان . . . ولا أكاد ألقى بالا الى ما عداها . . . دع الجميع يفعلون ما يشاءون ، دعهم يقيمون فى وجوهنا كل ما تمليه عليهم نفوسهم الوضيعة ومآربهم الشخصية من العقبات ، اننى لأهتم قط بما يفعلون ولا أقف لحظة واحدة لاحكم على أعمالهم ، فها هم إلا أشخاص وأفراد يعدون على الأصابع سوف تحفى مهما طال بها الزمن . . . ولكن الوطن خالد لا يموت . . .

قد يبدو هذا الكلام غريب الوقع على آذانك لأنك لم تتعود سماعه من قبل ،
ولكني واثق يا بني أن اليوم الذي سوف تسمع فيه كل مصري يتكلم بمثل
ما أقول أت لا ريب فيه وحينئذ سوف تجد كل مواطن ينفث النيران من
فمه عند ما يتكلم وتجرى الأبالسة فزعاً من نظرات عينيه المتقدة ويتحطم
الصخر تحت لمسات يده القوية وتهتز الأرض تحت أقدامه الثقيلة . . .

وكف الرجل عن الحديث وراح على الحجرة صمت رهيب ، وأحس
أنور وصديقه كأنهما قد انتقلا الى عالم غريب وأن هناك قوة سحرية
لا عهد لهما بها قد سرت في دمائهما ، فاخذا يتطالعا الى الرجل الجبار
المنتصب أمامهما تحوطه هالة من الجلال والرهبة بخشوع ووجد أنور نفسه
يقول فجأة وبحماسة متدفقة .

- إن كلامك يا سيدي قد أنار الطريق أمامي وجعلني أتبين السر في
عبوديتنا طول هذا الزمن ، لقد قاسينا طويلاً من ذل الإحتلال وامتلات
أفواهنا بمرارته لأننا كنا نفتقر الى أشخاص مثلك يبشرون بيننا بدين
الحرية والكفاح الخالص بمثل هذا الكلام الذي سمعته منك الآن وأكاد
أشك بأن هناك مؤامرة كانت مدبرة لحائط الأمور علينا وبث الخيرة
في نفوسنا وإشاعة القلق في أرواحنا ، ولكنني أقسم لك الآن باسم الوطن
المقدس إنني اذا رجعت من مهمتي سالماً فسأكون ذلك الشخص الذي
تكلم عنه .

فابتسم الرجل في لطف ثم قال وهو ينهض واقفاً .

- والآن يجب عليكما ان تنصرفا لأنني مشغل بالأعمال ، ويمكنك ان
ترجع الى هنا بعد ان يهبط الظلام وسوف تجد في قد أعددت لك كل شيء .
وشكره أنور ثم انصرف مع صديقه على الأثر ورجع الاثنان الى
منزل الأول وكان أول شيء فعله هذا الأخير هو إيقاظ شقيقه الأصغر من

النوم ثم أخذ يحزم له أشياءه وبعد أن انتهى من إدخاله في ملابسه غادر
الجميع المنزل ...

ووقفت أنور يشيخ العربة التي أقبلت أخاه برفقة صديقه إلى القاهرة ،
وتنفس الصعداء عندما اختفت عن أنظاره ثم دار على عقبيه ورجع إلى
منزله مرة أخرى ...

وفي الساعة الثامنة كان يطرق باب المنزل المتواضع وبعد دقائق
كان يقف أمام الرجل الذي قابله في الصباح ، ووجد نفسه رغمًا عنه
يخبره بالخطبة التي استقر رأيه عليها لينفذ بها انتقامه والرجل يستمع وهو
يعد له ما يلزمه من المفجرات ثم أخذ يشرح له كيفية استخدامها وبعد
أن أطمأن تمامًا إلى أن أنور سوف لا يجد صعوبة في القيام بهذا العمل
عندما تحين لحظة انتقامه حزمها له في كيس متسخ من القماش المتين ...
وناول الرجل أنور سلسلة صغيرة مخشوا بالطلقات وأوصاه بأن
يحتفظ به دائمًا في متناول يده احتياطا للمفاجآت ثم ذهب معه إلى الباب
الخارجي ووقف يودعه وقد بدت في عينيه نظرة مشجعة ، ولم يتمالك أنور
نفسه ومد يده وتناول يد الرجل وهزها في حرارة ثم استدار في سرعة
وسرعان ما ابتلعه الظلام ...

وسار أنور بحذاء شريط السكة الحديد في الطريق المؤدى إلى القاهرة حتى
وصل إلى خارج البلدة وانبطت أمامه الرمال من على الجانبين فأنحدر
إلى يمينه في طريق ضيق يفضي به إلى جوف المعسكرات الإنجليزية وإبتدأ
يسير فيه ملتحفًا بالظلام ، ورغم أنه لم يكن هناك ما يخاف منه في
مثل هذه البقعة المهجورة إلا أن عينيه كانتا تدوران من حوله طول
الوقت ويده على قبضة مسدسه ..

كان قد رتب في ذهنه كل شيء قبل أن يبتدأ رحلته وأبدل ملابسه

بجباب قدر ولف فوق رأسه قطعة من القماش الملهل وغير مظهره تماما حتى غدا الناظر اليه لا يشك في أنه أحد العمال الذين يشتغلون في المعسكرات الإنجليزية المنتشرة في كل مكان، وقد فعل أنور ذلك لأنه كان يعرف من قبل أن منظر هؤلاء العمال لا يشير الشبهة في نفوس الانجليز.

وفضل رغم تنكره أن يسلك الطريق الصحراوي لخلوه من المارة والعيون المتطفلة كما رأى أيضا زيادة في الحرص أن يقطع الطريق الطويل الذي يفصل بينه وبين المكان الذهاب اليه في الظلام .

وظل سائرا طول الليل وهو ينقل قدميه بخفة ونشاط ويتحرك كقطعة من الظلام ومن حوله كانت تبرز له أشباح مخازن القوات البريطانية المنتشرة بكثرة على جانبي الطريق وكان الهدوء يخيم من حوله ولا يقطعه غير صوت الرمال وهي تتناثر تحت أقدامه . .

كان الطريق الصحراوي الذي يسير فيه واحد من الطرق العديدة التي شقها الانجليز بين الرمال لتسهيل المواصلات بين معسكراتهم وابتدئ من خارج السويس متغلغلا في الصحراء حتى يلتقي بطريق المعاهدة الذي يصل السويس بالاسماعيلية عند قرية جنيفا .

وعندما ابتدأت في الأفق أولى تباشير الفجر كان أنور قد وصل إلى طريق المعاهدة وظهرت أمام عينيه على ضوء الفجر الشاحب مساكن قرية جنيفا القليلة فاتجه نحوها بخطوات متثاقلة ...

وأَمْضَى طيلة اليوم نائما في حجرة ضيقة في أحد الأكواخ المنتشرة على التربة التي تشق القرية الصغيرة عند أحد معارفه وعندما هبط الظلام كان قد استعاد قواه فودع صديقه وخرج وسرعان ما كان في طريقه مرة أخرى . .

وابتداً يسير في هذه المرة بخذاء طريق المعاهدة المؤدى إلى

الإسماعيلية. وهدير أمواج البحيرات المرة يصل إلى أذنيه في صوت خافت.
ويسرع إلى الاختباء على جانب الطريق كلما لمح ضوء إحدى السيارات
يلعب من بعيد

ووصل إلى قرية كبريت قبل منتصف الليل بقليل فبحث خطاه حتى
جاوز قرية فناره ثم ابتداءً يقطع المرحلة الأخيرة الباقية من رحلته
والتمتع بغمركل جزء في جسمه ، وهو يحس بأقدامه المنتفخة من كثرة المشي
تثن من تحته ، وعندما وصل إلى قرية أبو سلطان كانت أشعة الشمس الذهبية
ترسل أولى خطوطها في الأفق فأنحدر من فوق الطريق الرئيسي وتوغل في
الطرق الضيقة المفضية إلى القرية .

وتناول طعام إفطاره في أحد المقاهي الحفيرة التي تنتشر بكثرة على شاطئ
الترعة الضيقة التي تشق القرية الصغيرة إلى نصفين ، ثم أعرب لصاحب
المقهى عن رغبته في النوم وقد كان ذلك أمراً عادياً في هذه الأماكن ،
وأبرز للرجل قطعة من النقود فقاده هذا إلى غرفة ضيقة من الطمي والصفيح
ملحقة بالمقهى تكاد تكون خالية من الأثاث وأشار إلى بعض الزكائب المفروشة
على الأرض بجوار أحد الجدران ، ولم يتردد أنور بالإنقاء بجسده المتعب
على الفراش الخشن وسرعان ما كان يغط في نوم عميق .

راستيفظ قبيل المغرب بقليل فنهض بنشاط وقد أحس أنه قد
استعاد قوته بعد نومه الطويل وخرج إلى المقهى فوجد عامراً بالعمال
فوقف برهة يتأملهم وهم يتدفون طعامهم الرخيص إلى أجوافهم في
سرعة ونهم شديدين وأحس بالأسى بملاؤه وهو يتصفح وجوههم الشاحبة
واجسادهم النحيلة القدرة التي اضناها العمل الشاق والتي لا يكاد يغطيها شيء
غير هلاهيل ممزقة لا يستطيع المرء أن يميز إذا ما كانت حقيقة جابابا أو
سروالا أو خليطاً من كل ذلك .

ومضى الى ركن المقهى وتناول كوزا من الصفيح ملاءه بالماء
وذهب الى خارج الكوخ واغتسل ثم رجع وطلب بعض الطعام تناوله
في سرعة وبعد ان فرغ منه طلب قدحا من الشاي وركن ظهره الى الحائط
وأشعل لفاقة من التبغ وأخذ يدخن في هدوء ...

وسبحت عيناه في الفضاء خارج المقهى وهو يفكر بعمق ، لقد
قطع الآن النصف الأول من مرحلته وبقي أمامه النصف الآخر وهو
الخطير ، وكان فكره في هذه اللحظة يدور حول الطريقة التي يتبعها حتى
ينفذ إنتقامه ...

وظل بضغ دقائق جالسا في مكانه لا يتحرك ثم اشرق وجهه
فجأة وقام من مجلسه وأخذ يتنقل بين العمال يجاذبهم أطراف الحديث وعندما
رجع الى مكانه بعد ساعة كانت عيناه تلمعان ببريق غريب فقد عرف على
وجه التجدبد المكان الذي يقصده ...

وعندما قاربت الساعة الحادية عشر لف أنور قطعة القماش المهلهلة
فوق رأسه وغطى بها نصف وجهه ، وبعد أن تأكد من أن مسدسه معد
للإستعمال أردف بحرص اللفاقة القذرة المحتوية على المفرقات وراء
ظهره ثم تسلسل إلى خارج المقهى بدون أن يشعر به أحد وتوغل في جوف
الصحرَاء ، وبعد ساعتين كان يجثم خلف كومة من الرمال وعلى بعد عدة
أمتار منه إنتصب سياج طويل من الأسلاك الشائكة كان يلعب تحت اشعة
المصابيح الكهربائية المتباعدة وامكنه وهو في مكمنه أن يلمح الحراس
وهي تتحرك في كل مكان ، وكان الريح يحمل اليه من وقت لآخر أصوات
هدير العربات المختلفة وهي تمر به في دخولها وخروجها من المعسكر الذي
يقع خلف الأسوار الشائكة ...

وتسارعت دقات قلبه وهو يرى نفسه على مرمى ذراع من

هدفه ومضى عليه وقت طويل قبل أن يستعيد هدوءه وابتدأ يفكر في طريقة يتسلل بها إلى داخل المعسكر بدون أن يراه أحد من الحراس .
كان المكان الذي جثم على قيد خطوات منه هو مجموعة المخازن الرئيسية للدخائر والمفرقات للقوات الإنجليزية في الشرق الأوسط وقد تأكد تماماً بأن هذا هو المكان الذي يقصده عندما شاهد الأسقف المنخفضة المتناثرة بكثرة على الرمال بداخله وعرف فيها الجزء العلوي للمخازن المحفورة في الرمال ...

وأطلق من صدره في صوت منخفض ضحكة مخيفة وهو يتخيل هذه المخازن انقاصاً بعد الفراغ من مهمته، وظل راقداً في مكانه وقتاً طويلاً يراقب المعسكر حتى هدأت الحركة تماماً بداخله فأخرج مسدسه ووضع على الرمال بجانبه ، وبعد أن خلع ملابسه جميعها حتى أصبح عارياً كما ولدته أمه ، أخذ يزحف على الرمال في ببطء شديد ومسدسه في يده ولقافة المفرقات خاف ظميره ، وقطع المسافة التي تفصل بينه وبين الأسلاك في ما يزيد عن الثلاثين دقيقة ...

وإدار رأسه بحذر وهو ملتصق بالرمال ، ووجد الهدوء شاملاً من حوله فقد يده إلى لقافة المفرقات وتناول منها مقصاً كبير الحجم أخذ يقطع به الأسلاك الشائكة في هدوء غريب وقد غدت أعصابه في برودة الفولاذ ، وتهدأ في إرتياح عندما أفسح لنفسه طريقاً بين الأسلاك ، وتردد برهة قبل أن يزحف إلى داخل المعسكر ، فقد كان يعلم أن الإنجليز يبتشون دائماً الألغام تحت هذه الأسلاك واسكن تردده لم يطل لأنه لم يكن أمامه بد من هذه المجازفة فأخذ يزحف إلى الداخل من ببطء شديد ...

كان يعرف أنه لو اصطدم بأحد هذه الألغام المنتشرة تحت السور فسوف

يتمزق جسده إلى قطع صغيرة ولكنه كان يعزى نفسه بأن لو حدث وأنفجر أحد الألغام من تحته فإن انفجاره لا بد وأن يؤثر على المفرقات الحساسة التي يحملها خلف ظهره مما سيؤدي حتماً إلى اشتعال النيران في جزء من المخازن وبذلك يكون قد حقق جزءاً من انتقامه وهو خير من لأشياء ...

ولمعت عيناه في سرور عندما وجد نفسه يقطع المسافة الطويلة التي تفصل بين داخل المعسكر وخارجه بدون أن يحدث له أى حادث ، وظل راقداً في مكانه لا يتحرك ، وبعد أن جال حوله بنظراته زحف في سرعة شديدة الى أن وصل إلى أحد المباني المنخفضة فارتقى بجواره وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة ...

كان من المؤكد أن أحداً لم يلاحظه ، فالتدوم يحيط به من جميع الجهات ، فابتدأ يفحص المكان من حوله ووقع بصره على لافتات كثيرة مرتفعة على أعمدة خشبية أمام كل مخزن من المخازن العديدة التي تحيط به فزحف إلى إحداها وأمكنه ان يقرأ بصعوبة على ضوء المصابيح الشاحبة الذي يصل إليه من بعيد كلمتين مكتوبتين بحروف كبيرة باللغة الإنجليزية معناها ممنوع التدخين ، فأخذ يتنقل بخفة على الأرض بين المخازن وهو يزحف على ركبتيه بدون أن يحدث أى صوت ، ووجدتها جميعاً متشابهة تقريباً ، فحس ترفع عن الرمال حوالى الذراعين ويفضى إليها فجوة مخفورة في الرمال أمامها في آخرها باب من الصاج لا يستطيع أحد ان يرى الواقف أمامه إلا إذا كان على قيد خطوات من المخزن ، وابتسم في الظلام عندما أمكنه ان يقرأ بصعوبة بضعة كلمات مكتوبة أحدى اللافتات معناها مفرقات سريعة الانفجار وعرف أنه قد وصل على إلى بغيته ...

وزحف إلى داخل الفجوة المفضية إلى باب المخزن وأنزل اللقافة

المحتوية على المفترقات من فوق ظهره وفتحها ثم أخذ يعمل في سرعة وهدهوء وهو مطمئن على أن أحداً لا يمكن أن يراه إلا إذا كان واقفاً فوق رأسه تماماً ...

وفرغ من عمله بعد عشر دقائق، وبعد أن اطمأن إلى أن المفترقات التي بشها تحت باب المخزن سوف تنسف عند انفجارها وتفجر بدورها الأخرى المسكدة وراءه، صعد إلى أعلى وفرد قطعة القماش التي كان يحمل فيها المفترقات فوق الفجوة المفضية إلى باب المخزن وأسندها من كل من طرفيها بحجر كبير حتى يغطي الفجوة ولكي يطمئن إلى أن أحداً سوف لا يرى من بعيد ضوء الفتيل وهو يحترق، ثم نزل إلى الفجوة مرة أخرى وأشعل الفتيل وتسلل مبتعداً في سرعة، وأخذ يرحف عائداً صوب الأسلاك الشائكة ليخادع المكان ولكنه توقف عندما رأى ضوء إحدى السيارات وهي قادمة في ببطء من بعيد فتوارى خاف أحد المخازن القريبة. ولم ينطح على وجهه وقلبه يدق في عنف عندما شاهد في مقدمة العربة مصباحاً كشافاً كان يدور في شتى الاتجاهات وعرف أن هذه لابد أن تكون عربة الحراس في إحدى دورات التفتيش الليلية.

وربض في مكانه جامداً لا يتحرك وهو يرقب بقلب واجف العربة في تقدمها البطيء، وحدث ما كان يخشاه اذ سقط ضوء مصباح العربة الكشاف على الأسلاك المقطوعة وتوقفت العربة على الأثر ولوح عدة أشباح تقفز من داخلها وامكنه وهو في مكانه أن يسمع بعض الأصوات تتحدث في انفعال مختلطة بنباح أحد الكلاب ...

كانت حياته في هذه اللحظة لا تهمة بقدر ما كان يهيمه حدوث الانفجار، وعول على أن يبعد نظر الحراس عن مكان الفتيل المشتعل حتى لا يفتنوا إليه ويسارعوا إلى إطفائه وبذلك تكون حياته

قد ذهبت هدرا بدون أن ينفذ انتقامه الرهيب ، ولم يشك لحظة واحدة في المصير المروع الذي ينتظره على أيدي الانجليز اذا وقع في أيديهم ...

ورفع مسدسه في يده وقد لمعت عيناه ببريق مخيف ثم أطلق رصاصة تحطم على أثرها المصباح الكشاف الموضوع في مقدمة عربة الحراس وانتقل من مكانه بسرعة، وقد أحسن صنعاً بذلك لأن وإبلا من الرصاص لنهمر كالطار على المكان الذي أطلق منه رصاصته ...

وفجأة توقف إطلاق الرصاص وسمع أنور صوتاً مليئاً بالحق والإفعال يرتفع في الظلام وينهال بالسبب على الشخص الذي أطلق الرصاص وسط المخازن المليئة بالمفرقات ...

وارتفع في هذه اللحظة نباح أحد الكلاب المتوحشة ولمح أنور شبح كلب ضخيم يتقدم نحوه بسرعة كبيرة فصوب اليه مسدسه بيده ثابتة وأطلق الرصاص ولكن الكلب لم يتوقف في عدوه واستمر مندفعاً نحوه كالبرق الخاطف ، ولولا أنه ظل متمسكاً أعصابه لآخر لحظة وهو يطلق الرصاص بدون توقف حتى تمكن من إصابة الكلب بأحدى رصاصته ، لكن الكلب الهائج قد مزق جسده تمزيقاً ...

وآخى جسد الكلب الضخم وهو يهجم على أنور في شراسة وسقط فوقه فاقد الحياة وغمره بدمائه الساخنة ، فأزاح جسده الثقيل من فوقه ، وقبل أن تتاح له الفرصة لالتقاط أنفاسه اللاهثة لمح عدة أشباح تعدو في اتجاهه وقد شهرت في أيديها المدافع السريعة الطلقات ...

وقفز من مكانه بسرعة واختفى وراء أحد المخازن عندما سقط عليه ضوء المصباحان الأماميان للعربة التي كانت قد استدارت في تلك اللحظة وركزت ضوء مصباحيها على المكان الذي سقط فيه الكلب

ثم صوب مسدسه إلى ناحية العربية وأطلق رصاصتين ساد بهما الظلام
المكان مرة أخرى ...

وتوقف الرجال المتقدمين نحوه عند ما ساد الظلام فانتهمز هو الفرصة
وانطلق يعدو بسرعة متوغلا في داخل مخازن الذخيرة، وألقى بنظرة وهو يعدو
إلى الوراء فسمع عدة أشباح تجرى خلفه في صمت فابتسم ابتسامة وحشية
وهزه الطرب وهو يرى نجاح خطته عندما رأى أنه قد ابتعد عن
المكان الذي اشعل فيه الفتيل بمسافة كبيرة والحراس من خلفه ...

وإرتدى خلف أحد المخازن في أعياء من كثرة العدو وأخذ ياتقط
أنفاسه المتلاحقة بصعوبة ثم اطل برأسه من وراء الحائط القصير فليح
مطارديه يقتربون من مكانه بسرعة كبيرة فصوب مسدسه إلى أحدهم
وضغط الزناد فانطلقت رصاصة سمع على أثرها صرخة ألم عالية فضغط الزناد مرة
أخرى ولكن المسدس لم ينطلق في هذه المرة بعد أن فرغت رصاصاته .
وقذف بالمسدس بقوة في وجوه مطارديه، وبعد ثوان وجد نفسه
يحدق في فوهة خمس مدافع مصوبة إلى صدره فرفع يديه إلى أعلا في بلاء
وقبل أن يتفوه أحد منهم بكلمة واحدة اندلع من ورائهم ضوء أزرق
أعمى عيونهم تبعه انفجار يصم الآذان جعل الأرض تهتز في قوة
تحت أقدامهم ...

وشعر أنور بنفسه يطير في الهواء ويسقط في عنف على الأرض وهو يحس
برأسه يدور في سرعه غريبة، وحاول الوقوف على قدميه ولكنه لم يستطع
أن يحرك أى عضو في جسده ..

وتلفت حوله ووجد نفسه يرقد وحيدا فوق الرمال وتراقصت أمام

عينيه الذاهلة صور أشباح تجرى في كل مكان وقد استولى عليها الرعب، والفرع
ووصل الى سمعه أصوات عديدة مختلطة ببعضها خيل اليه أنها تأتي اليه من
مكان سحيق، ولاح على ضوء النيران المشتعلة اجسام اشياء ضخمة تتطاير في
الهواء ثم تختفي في ظلام الليل ...

وأطلق من صدره ضحكة مخيفة تحشرجت في حلقه ولم يخرج
من بين شفثيه غير آنة ضعيفة ولكنه أحس رغم ضعفه وهو يراقب
إمتداد النيران المشتعلة من حوله ، بلهب الحق والكرامية ينطلق في
دمائه بالتدريج ...

ولم يشعر بألم عندما رقد جسده ثانيا على الأرض ...

وخيل إليه أنه يلح أشباحا هائلة الطول تلبس طراير حمراء
يتوسط وجوهها أسنان بشعة المنظر ترقص بجنون في جوف النيران
المشتعلة في أرجاء المعسكر وقد أسبغ لهب النيران على ملابسها الحمراء بلون
الدم ظلالا مخيفة وهم يشيرون اليه ويقولون جميعا في صوت واحد منعوم
على هزات أجسادهم ...

— ما أبدع هذا الانتقام يا أنور ...؟ إنظر الى عشرات الأجساد وهي
تتطاير اشلاء متناثرة في الهواء ... أنظر الى ملايين الجنينيات وهي
تتحرق في جوف هذا الجحيم الذي أشعلته ... فليطمئن بالك الآن يا أنور
لقد انتقمتم لوالدتك وللصيرين أجمع ... وان يجد الأعداء بعد اليوم
ذخيرة يقتلون بها مواطنيك ...

وتخدر جسده وأحس كأنه يسبح في حلم لن يذرى يرى نفسه فيه يبيع
حياته إلى فتاة نبيلة القسمات يشع منها النبل والطهارة حلت رأسها بتاج
أنيق كانت لآله الثمينة تشع في عينيه ببريق يخطف الأبصار ، وقد
وقف أمامها حشد كبير من أعداء بلاده ، يطل اليأس والمرارة من أعينهم

الحائقة وهم يدفعون للفتاة ثمن حياتها ، وأدهشته تلك الأكوام الهائلة
من النقود والجثث التي انجنت الفتاة تفحصها بعين الخبير وعلى شفقتها
إبتسامة راضية ...

وقارن انور في ذهنه بين حياته الرخيصة وبين هذا الثمن الكبير الذي
دفعه أعداء بلاده في مقابلها وهالته نتيجة المقارنة وتسامل في ذهول ..
أيمكن ان تكون حياته ثمينة الى هذا الحد ؟ وعرف في هذه اللحظة
فقط مقدار ما يمكن للفرد الواحد أن يحققه لبلاده من المعجزات ووجد نفسه
بدون وعى يحصى في ذهنه عدد المخازن الحيوية الهامة التي تداخبطوط الاستعمار
الذي بجثم على صدر بلاده منذ عشرات السنين بالحياة ، واعتراه الذهول
عندما وجدها لفرط دهشته يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة ...

وأحس بديب الموت يسرى إلى عقله والظلام يزحف إلى خلايا
رأسه ويطاردها من كل ما يملؤها من الخواطر والأفكار فتراخت أعضاؤه
وأسلم نفسه إلى الموت الزاحف اليه ...

وفجأة تدفق إلى خلايا ذهنه ضوء باهر بدد ظلام الموت الذي كان يلف عقله
في هذه اللحظة وأحس بقوة سحرية تسرى إلى جسده وحاول أن يزحف على يديه
عندما دوى في أذنيه صوت رهيب يصرخ فيه - كلا ... كلا .. لا يجب أن تموت
الآن يا أنور .. إن عليك واجباً مقدساً يجب أن تؤديه قبل أن تغمض
عينك إلى الأبد .. يجب عليك أن تعلن للبلا ذلك السر الذي عرفته الآن ..
يجب أن تقول لكل مواطن أن ثمن الحرية لا يتعدى أكثر من التضحية
ببضعة بأفراد قلائل ... تشجع يا أنور .. انفض على قدميك يارجل وأصرخ
بأعلى صوتك معلنا هذا الاكتشاف الخطير ...

ولم يتحرك عضو واحد في جسده ، وعجز حتى عن فتح عينيه
وأعياء الجهد الذي بذله فتراخت أعضاؤه مرة أخرى وهمس لنفسه بإعياء

— ما أغباني ؟ أفقدت الإيمان بمواطني إلى هذا الحد ؟ لا بد وأنهم
الآن يعرفون قيمة الحرية وسيسارعون إلى إبتداعها بهذا الثمن الرخيص ...
وأخذت الأرض تدور به في سرعة كبيرة وسرى إلى جسده استسلام
ثديد ولم يعد يشعر بأى شيء ، ورأى كما يرى الحالم ، النيران المتأججة من
حول له تلتشق فجأة عن شبح ملتحف في ملابس ناصعة البياض ، ولم يدر إذا
ما كان هذا الشبح يهبط إليه أم هو صاعد نحوه ، ولم يشعر بأكثر من أنهما
يقتربان من بعضهما بسرعة كبيرة ...

وأحس بذهنه يصفو وبجسده يصبح في خفة الهواء وهو يزداد إقتراباً
من الشبح الأبيض ... وفجأة قفز إلى عينه بريق من المعرفة وصرخ
في فرح ...
.. أماء ...

وإحتضنته والدته بين ذراعيها في حنان غريب وهي تضحك في صوت
خافت ضحكات تفيض بالسعادة المزوجة بالتشفي ...
وسرت إليه عدوى الضحك ووجد نفسه يضحك مع والدته في صوت
هاديء أخذ يعلو ويشتد كلما إزدادا إرتفاعاً في الهواء ... حتى أصبحت
ضحكاتها تدوى في السماء كالرعد وتبتلع في طياتها أصوات الانفجارات
المتتالية التي تهز الأرض من تحتها ...



سر اللئيل .

لم يكن مبروك أفندى بالشخص الأحمق الذى يحمل معه
فى مغامراته مسدساً محشواً بالطلقات أو سلاحاً حاداً، فهو يكره
من أعماق قلبه الإلتجاء إلى العنف ، وإختار لنفسه سلاحاً
فريداً من نوعه لم يخطر على بال أحد من المغامرین إستعماله
من قبله . . .

توقف مبروك افندى عن الكتابة ورفع رأسه وسرحت نظراته فى
سقف الحجرة وأخذ يمس طرف قلبه مفسكراً ثم أبرقت عيناه وإنحنى
بسرعه على الدفتر الضخم المفتوح أمامه على المنضدة وكتب

— وقد قررت أن أطلق على نفسى إسم نسر الليل .

ورفع رأسه مرة أخرى وهو يتنهد بإرتياح كأنما وفق إلى حل مشكلة
عويصة وألقى بالقلم من يده على المنضدة، وبعد أن تمطى بكسل وفرقع
أصابه أצל الدفتر الكبير وتناول قطعة باهتة اللون من القماش تعلوها
القنارة كانت ملقاة على ظهر أحد المقاعد بجوار رءف فى الدفتر بعناية كبيرة
ثم نهض بعد ذلك واقفاً وحمل بحرص الدفتر الثقيل على ذراعيه
ومضى إلى سرير حديدى كبير يتلغ ثلاثة أرباع الحجرة الضيقة وانحنى
على ركبتيه وجذب من تحته حقيقه خشبيه عتيقة تحطمت جدرانها وبهت
طلاؤها أخذ يعالجها مدة طويلة حتى تمكن من فتحها ثم وضع بداخلها اللقافة
المحتوية على الدفتر وبعد أن أعاد قفل الحقيبة وأرجعها ثانياً إلى مكانها نهض
واقفاً وهو ينفض الفبار عن ركبتيه وقد بدت على وجهه دلائل الابتهاج
ثم تناول بعد ذلك مقعداً خشبياً حمله إلى خارج الحجرة ووضع أمام بابها
وارتمى عليه ورفع عينيه إلى السماء وأخذ يحرق فى النجوم اللمعة التى كانت
تبدد بضوئها الشاحب بعض الظلام الخالك الذى يلف فراغ السطح
الواسع المنبسط أمامه وقد غرق فى تفكير عميق . . .

كان مبروك افندى قد فكر جيداً فى الأمر الخطير الذى هو مقبل

عليه ودرس بدقة متناهية جميع التفاصيل الخاصة به وعمل حساباً لجميع
الإحتمالات ، وكان وهو جالس في هذه اللحظة يراجع كل شيء في ذهنه
حتى يطمئن إلى عدم وجود ثغرة في خطته لم يلتفت إليها من قبل ...

لقد أصدر مبروك أفندي قراره الأخير وعزم على أن تكون الليلة
هي الحد الفاصل بين حياته الحافلة وحياته الأخرى التي سوف تبتدىء هذا
المساء أو على الأصح بعد منتصف الليل مباشرة ...

كان قد ضاقت ذرعاً بحياته الفارغة وكره أن يعيش على هامش الحياة أكثر
من ذلك، وأصبح يمتص هذه النظرات الساخرة التي تبدو في عين كل من
يراه وأحس أنه لا يستطيع احتمال المزيد من هذه النكات اللاذعة التي تعود
بإلحاحها الجميع كلما أهل عليهم بقامته القصيرة ورأسه الضخم ...

وعبس وهو يتذكر بعض هذه النكات وعض على شفتيه في غمظ ،
وظل جالساً في مكانه مدة طويلة وهو يدق الأرض بقدمه في ضيق ثم
لأبتدأت الراحة تناسب إلى نفسه المعذبة عندما تذكر ما عقد عليه العزم في
هذا المساء ...

لقد هزأ الناس طويلاً من منظر رأسه الضخم وأنفه المفرطح ، ولكنه
الليلة سوف ينتقم لكل ما أصابه على أيديهم من الهزء والسخرية وسوف
يعرف كل فرد أي عقل جبار يرقد في داخل هذا الرأس الكبير ...
ولم ينسجم عندما وصل إلى هذا الحد من أفكاره وفرك يديه بسرور
وهو يستعرض في ذهنه سلسلة المخامرات الجريئة التي اعتزم القيام بها
واحدة بعد الأخرى ...

كان أشد ما يضايقه هو عدم التفات الناس إليه إلا بالقدر الذي يوحيه
منظره اليهم من النكات ، أما غير ذلك فقد كان كل فرد يعامله

كما لو كان قطعة مهملة من الأثاث القديم ، وقد حاول عبثاً أن يجنب
الأنظار اليه ويجبر الناس على احترامه ولكنه فشل ، وكان يذوب لهفة
وشوقاً لكي يلمح نظرات الإعجاب والاحترام تطل من عين كل من يراه
وأن يخاطب الناس وده ، ولكنه اضطر في آخر الأمر بعد محاولات عديدة
فاشلة للتسليم بالحقيقة المرة وهي أن الناس لا يحترمون إلا الأقوياء وذوى النفوذ
والثراء ...

وتنهّد بحسرة من أعماق قلبه المحروم . . . وتلفت حوله في حنق ...
لكم كرة هذا الظلام الذي يحيط به من كل جانب . . . وهذا الهدوء المقيت
الذي يزحف إلى سطح العمارة بعد هبوط المساء ويكاد أن يحطم أعصابه
ويدفعه إلى الجنون ...

مرة واحدة ابتسمت الحياة في وجه مبروك أفندى عندما ضحكت له
خادمة الخواجة كارايسكو الذي يقطن في الطابق الرابع من العمارة
وأَمْضى ثلاثة أيام يعيش في جنة من الأحلام السعيدة ...

وتنهّد مرة أخرى بحرقّة وأسف عندما هاجمته هذه الذكريات
المريّة وقال لنفسه . . . حتى هذه الخادمة الخفيفة لم تقبل الزواج منه
وهو الأفندى المتعلم وفضلت عليه عبد السميع صبي البقال المجاور للعمارة ...
ولما كان يميل إلى جانب الحق دائماً ، فإنه لم يشعر بأى حق على
الخادمة ولم يلق باللوم عليها واتمس لها الأعذار لأنه يعرف أنها جاهلة
لم تدرس بعد أسرار الاقتصاد دراسة وافيه ، ولا ريب أنها أحست
بالصداع يحطم رأسها والغشيان يصيبها وهي تحاول أن توفق في ذهنها بين
مطالب الحياة وراتبه . . فلا عجب إذا كانت قد أطلقت ساقها للريح
وألقت بنفسها بين أحضان صبي البقال الذي لا يعرف كيف يكتب اسمه .

ولمعت عيناه اعجابا بمهارة الخادمة وذكائها وعجب كيف لم يخطر
على باله من قبل أنها استعملته كسلاح يثير غيره عبد السميع صبي البقال
كما استعملت هذا الأخير لنفس الغرض حتى دفعت كلاهما لمرض الزواج
عليها في وقت واحد، ثم قارنت بين الإثنين وفضلت الزواج من عبد السميع
لأنها كانت تريد من الزواج الراحة من الخدمة في بيوت الأسياد بينما
كان مبروك افندى ينظر الى الزواج من زاوية أخرى ...

ورفع رأسه وأخذ يتأمل السماء الصافية المنبسطة فوقه ويملاً رثتيه
من هواء الليل المنعش ثم هز رأسه مؤكداً لنفسه ما يحول فيها من أفسكار وقال :
— لقد انتهى كل شيء الآن وإن أكون بعد هذه الليلة في حاجة الى
استجداء العطف من خادمة حقيرة وأن أمتي نفسي بمقاسمتها أجرها القليل
ليخفف عن بعض مطالب الحياة .

وبصق على الأرض في اشمزاء عندما وصل الى هذا الحد من أفسكاره .
وتابع حديثه لنفسه .

— سوف اجعل نسر الليل يحقق لمبروك افندى جميع الأمانى
والأحلام الجميلة التي تملأ مشاعره .. وسوف أجد في نظرات الرهبة
والاعجاب التي ستلعب من غير شك في العيون عندما يتحدث أصحابها عن مغامرات
هذه الشخصية الغامضة ويتنقلون أنباء حوادثه الجريئة وهم مبهورى الأنفاس،
سوف أجد في كل هذا من اللذة ما يمكنه أن يثير مشاعري ويذهب عن روعى
التي كادت أن تصدأ من طول الكسل والوحدة تخول هذه الحياة الرابدة ...
ولمعت عيناه ببريق خفيف وهو يضحك في وحشية ويمنغ نفسه
بشق الأنف من الرقص طرباً عند ما اخذ يتخيل نفسه وهو يدور بعينييه
في تشفى في وجوه أهل الحى ويستمتع لإيهم وهم يتحدثون عن مغامرات نسر
الليل وشعر بلذة الانتقام تسرى في دمائه حارة ملتتهبه نسكته سمع في طريقها كل

مارسب فيها من النذل والمهانة التي تعرض لها في الماضي ...

ومصمم بشفتيه وهو يكتسح سطح العمارة الواسع بنظرة نفاذه
اعجابا بذكائه الجبار ، وظهرت له فيه في هذه اللحظة مقدار المزايا التي
تجسط به في هذا المكان والتي لم يفتن اليها من قبل ، فهو هنا يستطيع أن يدخل
ويخرج بهدوء وفي أى وقت بدون أن يلفت اليه إلا نظار اليه ، وكان لهذا الظلام
والهدوء الشامل الذين يحيطان به الفضل الاول في اخراج شخصية نسر الليل
إلى حير الوجود ، بعد أن ظلت الفكرة تداعب خياله زمنا طويلا ...

وكان مبروك أفندى قد مهد من قبل ذلك لهذا الانقلاب الخطير الذي يود
احداثه في حياته الهادئة بشراء مجموعة ضخمة من الروايات البوليسية وعكف
ليالى طويلة على قراءتها وعاش بروحه مع أبطالها ، وكان كلما توغل في القراءة
تزداد فكرته رسوخاً في ذهنه وتبدوله في منتهى البساطة حتى انتهى أخيراً
إلى قراره الخطير وحدد منتصف هذه الليلة موعداً للقيام بأولى مغامراته .

ولما كان مبروك أفندى يؤمن في قرارة نفسه بإيمانا عميقاً بأنه سوف
يكون من الشخصيات التاريخية البارزة في يوم من الأيام ، وأنه سوف
يأتى عليه يوم يحرك فيه دقة المجتمع بأنامله ويجعلها تدور تحت تأثير اشعاع
ذهنه الجبار فإنه كان يحرص على تدوين كل شيء يتعلق بحياته في مذكراته
الخاصة لأنه كان يريد أن يوفر على المؤرخين مشقة التنقيب في بطون
التاريخ بحثاً عن دقائق حياته ، وكان حينما يجلس لسطر مذكراته يشعر بأهمية
المسؤولية الملقاة على عاتقه ، ولذلك فإنه كان دائماً يتوخى الدقة والصرامة
التامة في كل ما يخطه ، حتى أنه كان من السهل جداً أن يعرف المرء كم قرصاً
من الطعمية تناولها في غذائه في يوم يرجع تاريخه إلى ثلاثة أعوام مضت
وذلك بالرجوع إلى هذه المذكرات ...

وظل جالسا في مكانه مدة طويلة حتى شعر بأن الوقت قد حان للبدء في مغامرته فنهض واقفاً بنشاط ودخل حجراته وهو يمشي على أطراف أصابعه . . . وقد كانت هذه عادة لازمته منذ أن عزم على تقمص شخصية نسر الليل . . . حتى يتعود على الحذر والخفة في نقل خطواته والتلصص بدون أن يشعر به أحد . . .

وجذب من تحت الفراش لفافة كبيرة تركها فوق المنضدة وذهب إلى باب الحجرة وأطل برأسه إلى الخارج ودار بنظراته في الظلام المتكاثف الذي يغرق فيه سطح العماراة ولما لم يلمح شيئا يشير الشبهة أغلق الباب في هدوء وبدون أن يحدث أى صوت ، ثم فتحه بعد ذلك بسرعة مرة أخرى واكتسح المسكان بنظرة حديدية زيادة في الحرص . . . ورجع بعد أن أقفل الباب وراءه إلى المنضدة وفرد اللفافة التي أحضرها من تحت الفراش وأخرج منها جلباباً قديماً ، كان قد أحضره خصيصاً لهذا المناسبة وابتدأ في تغيير ملابسه ، وبعد أن لبس الجلباب تناول معطفاً عتيقاً مهمل الجوانب لبسه فوقه ، ورغم أن الجو كان صيفاً إلا أنه كان يريد أن يكون تنكره كاملاً . . .

ووقف أمام مرآة صغيرة مثبتة على أحد الجدران وتناول عمامة قديمة ذات لون باهت على جدرانها أثر خفيف من لونها الأحمر القديم ثبتها في صعوية فوق رأسه الضخم ثم لف فوقها ملفحة صوفية غطى بنصفها ثلاثة أرباع وجهه ، وبعد أن فرغ من تنكره وقف يتأمل الصووة التي طالعته في المرآة وهو يمنع نفسه بقوة من الاستلقاء على قفاه من الضحك وبعد أن أطمأن تماماً أن أحداً لا يمكن يعرفه وهو في هذه الهيئة الغريبة ، أطفأ المصباح ثم تسلسل بخنقة الأشباح إلى الخارج ، وبعد دقائق

كان يسير في ظلال المنازل في الشوارع الهادئة الخالية من المارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، واستمر في سيره مدة طويلة ثم وقف في آخر الأمر أمام أحد المنازل وتوارى في بقعة مظلمة وأرسل بصره يتأمل المنزل الرابض في الظلام ...

كان المنزل الذي وقف مبروك أفندي أمامه يفحصه بنظراته مكثرة من طابقيين ويحيط به سياج حجري منخفض يفصل بين فناءه الواسع وأرض الطريق وقد بدأ له في هذه اللحظة كالمهجور ولم يلبح مبروك أفندي أى أثر للحياة يطل من نوافذه ...

كان اختياره قد وقع على هذا المنزل بالذات ليسكون مسرحاً لاولى مغامراته ، وقد سبق له أن عاينه قبل ذلك مراراً في ضوء النهار ودرس جميع الشوارع والمنافذ المؤدية اليه وظل يحوم حوله باستمرار ، وعندما لمح في عصر هذا اليوم الشيء الذي ظل يترقب ظهوره في فناءه أياماً طويلة عزم على السطو عليه في هذه الليلة ...

وتقدم من المنزل في خطوات خفيفة ودار حوله ووقف أمام باب خفي صغير قائم في الحائط الحجري وأخذ يمالجه مدة طويلة بأداة أخرجها من جيبه محاولاً فتحه حتى تصيب جبينه عرقاً ولكن الباب لم يلبس تحت صابعه ...

كان يعرف أنه يستطيع أن يقفز إلى فناء المنزل بسهولة من فوق السياج المنخفض ، ولكنه كان قد رتب الأمر في ذهنه من قبل على تحطيم قفل الباب حتى يترك وراءه أثراً لزيارته وحتى تقسم مغامرته بطابع الجرأة والاستهتار ، ولكنه وجد نفسه في آخر الأمر مضطراً إلى التخلي عن الجزء الخاص بتحطيم قفل الباب من خطته ...

وأجال نظرة سريعة من حوله قبل أن يتراجع إلى الوراء قليلاً ويقفز

قفزة هائلة ويمسك بحافة السياج ، ولم يكده يفعل ذلك حتى أحس كأن السنة من اللهب قد اندلعت في يديه فكاد أن يصرخ من الألم المفاجيء ولما سكنه ضغط على شفتيه في قوة ثم رفع نفسه قليلا ، وبحركة رياضية بارعة طوح بقدميه إلى الجانب الآخر من السياج وألقى بنفسه في فناء المنزل ، ولما لم يسقط على أرض الفناء مباشرة لأن ذيل معطفه الفضفاض كان قد اشتبك بقطع الزجاج البارزة فوق جدار السياج ، ووجد مبروك أفندي نفسه معلقاً من قدميه ورأسه إلى أسفل ...

وكاد قلبه يقفز من الرعب عندما سمع وهو معلق في الهواء بهذا الشكل وقع خطوات ثقيلة تقترب من المنزل في ببطء ولما كنه تلك الأعصاب بسرعة وهز جسده في عنف ، وسمع على الأثر صوت شيء يتمزق مختلطاً بالضججة التي أحدثها صوت ارتطام جسم مبروك أفندي بالأرض ...

وظل راقداً في مكانه مدة طويلة وهو لا يجرؤ على التنفس وأخذ ينهت بقلب خافق إلى وقع الأقدام الثقيلة وهي تقترب منه ثم ابتداء هديره يعود إليه عندما وجد الشرطي يستمر في طريقه بدون أن يتوقف وعاد الهدير يسيطر على المكان وابتدأت شجاعته تعود إليه بالتدريج ...

وتطلع إلى يديه الداميتين وأخذ يلعن أصحاب المنزل لغرسهم هذه القطع الزجاجية الحادة فوق حافة السياج ثم أخرج من جيبيه خرقة قدرة أخذ يزيل بها الدماء العالقة بهما وحين فرغ من ذلك أحس بنفس الألم ينبعث من قدميه فتحسسها ووجد أن حالها ليس بأحسن حال من يديه ...

ونهض من مكانه وهو يجسد مشقة كبيرة في الوقوف على قدميه ، بعد أن بذل كل ما يستطيع من جهد لإيقاف الدماء النازفة من جروح يديه وقدميه ويغالب الألم الذي كان ينبعث من كل جزء في جسده من جراء سقطته ...

ولمحت عيناه في الظلام ونسى الآمه عندما وقعت أبصاره على الشئ
الذى كان قد قدم من أجله فتقدم في حذر شديد وكاه حواس مرهفة ثم مد يده
بلهفة وأطبق على غنيمته بجشع وهو يعجب كيف يترك اصحاب المنزل
البهاء مثل هذه الاشياء الشمينية في فناءه ، ثم أخذ يوزع غنيمته على
جيوب معطفه الواسعة ، وبعد أن فعل هذا أخرج من جيبه الداخلى
قطعة كبيرة من الطباشير وتقدم بخطوات واسعة صوب احد الجدران
ورخط فوقة بحروف كبيرة لاتمت بصلة الى خطه الاصلى كلمة «نسر الليل»...
ووقف لحظة يتأمل الحروف البيضاء ثم تنهد فى سرور واتجه ناحية
الباب الخلفى وتحسس مزلاجه واخذ يشده إلى الخارج بخفه حتى لان فى يده
وانزلق بدون أن يحدث أى صوت ...

وحرك الباب بمقدار بوصة واحدة وأرسل نظراته الى الخارج فلم
يلح ما يشير الشبهات . فحرك الباب قليلا واخرج رأسه وكاد يتبعها
بجسده لولا أن برز فى هذه اللحظة شيخ أحد رجال الشرطة فى منعطف
من الطريق فارتد ثانياة الى الداخل واقفل الباب وراءه ووقف خلفه وهو
يلمك فى شدة ...

وابتدأت لذة المفامرة تسرى الى مشاعره وأحس بدماؤه تهرى فى
عروقه ساخنة ملتهبة وخيل اليه فى هذه اللحظة انه يعيش فى احدى
اللحظات الخالدة من عمره وهمس لنفسه فى الظلام ...

والآن ماذا ستفعل يانسر الليل ؟ ها أنت محاصر فى داخل المنزل
وأمامك رجال الشرطة يحاصرونك من جميع الجهات وفى جيوبك أدلة
إجرامك ، وقد سدت أمامك كل منافذ الهرب !!..

وظل فى مكانه مدة طويلة ينصت من خلف الباب حتى اذا ما إطمأن
إلى أن الهدوء عاد يخيم على الشارع مرة أخرى فتح الباب وتصلبت

عضلات وجهه عندما لمح الشرطى العنيد واقفا لا يتحرك فى ظل احد أبواب
المنازل القريبة وقد أمسك ببندقيته فى يده ...

وأيقن مبروك افندى أن الشرطى قد اكتشف أمره . . . وأختبأ فى
الظلام انتظارا لخروجه ، ولكن هذا لم يزعجه على الإطلاق فقد كان
يتوقع شيئا من هذا القبيل قبل أن يقدم على مغامرته واتخذ من الحيطه ما
يكفل له الخروج سالما من شتى المآزق ...

وابتسم لنفسه فى سخرية وشعر بالتماس يتدفق الى دماغه وكشر عن
انيابه وهمس لنفسه . . . حسنا ايها الشرطى سوف تعرف عما قليل من هو
نسر الليل ...

وهو كنفه فى أسف وهو يمد يده الى جيبه - كان يود من كل قلبه
أن يتجنب استعمال الاسلحة فى مغامرته ولكنه كان قد رتب كل شيء
فى ذهنه من قبل وأعد عدته لمحابه أمثال هذه المفاجئات ، ولذلك لم
يزعجه كثيرا وقوف الشرطى فى انتظاره ، بل بالعكس شعر نحوه بالشكر
لأنه سوف يتيح الفرصة له لإرواء نفسه العطشى للمغامرة ...

وأخرج من جيبه نبله صغيره مما يستعمله الأطفال وقد لمعت أسنانه فى
الظلام وهو ينسم إعجابا بدهائه وحسن تدبيره ويكاد أن يصفق إستحسانا
لأفكاره الجهنمية ...

لم يكن مبروك افندى بالشخص الاحق الذى يحمل معه فى مغامراته
مسدسا محشوا بالطلقات أو سلاحا حادا فهو يسكره من أعماق قلبه الإلتجاء
إلى العنف ، واختار لنفسه سلاحا فريدا من نوعه لم يخطر على بال أحد من
المغامرين استعماله من قبله ، وكان واثقا أن تأثير مثل هذه النبله الخفيفه فى
اليه المدربه يكون أشد فتكا من تأثير القنابل المحرقة .

وتناول من جيبه حجرا صغيرا - فهو لم ينسى أن يزود نفسه بكمية وافرة من الذخيرة قبل أن يخرج من حجراته - ووضع الحجر في النبلة ثم شدّها بقوة وأحكم التصويب وترك الحجر يسبح في الهواء ...

وقفز الجندي بفرح من مكانه على صوت الحجر وهو يرتطم في الباب الخشبي وراءه بعنف وأخذ ينظر حولة مذعورا ويفرك عيناه ليزيل عنهما أثر النوم الذي كان غارقا فيه ، ولم يمهله مبروك أفندي وحشا نبلة مرة أخرى وصوبها إلى الناحية المضادة وأطلقها .

ودوى في الظلام صوت ارتطام الحجر بأحد الأبواب الخشبية البعيدة ، ولم يتردد الجندي وإطلاق يعدو إلى المكان الذي صدر منه الصوت وتابعه مبروك أفندي بنظراته وهو يتقدم في سخرية ثم حشا نبلة للمرة الثالثة وأمسك بها في يده على تمام الاستعداد لإطلاقها عند اللزوم وتسأل خارجا من المنزل وأغلق الباب وراءه ...

وقبل أن يختفي في منتصف الشارع التي بعصره إلى الورا وشاهد جندي البوليس وهو واقف على مقربة منه يتطلع حوله في حيرة وقد شهر سلاحه في يده فابتسم ابتسامة خبيثة وصوب إليه سلاحه القاتك وترك الحجر يسبح في الهواء ثم أطلق ساقيه للريح وتأوهات الجندي وهو يمسك بقدمه تتابعه ...

وتسأل في هدوء إلى حجراته وأقفل الباب وراءه ثم أسرع بخلع ملابسه وإزالة تنكره وبعد أن وضع غنيمته الثمينة بحرص على الفراش ارتدى جلبابه المنزلي وذهب وغسل قدميه ويديه وأزال كل أثر للدماء عليها ثم عاد وهو يصفر في مرح واتجه إلى ناحية السرير الحديدي وجذب من تحته الحقيبة الخشبية وأخرج دفتر مذكراته وبعد أن فرغ من تدوين أولى مغامراته

أرجعه مرة ثانية إلى مكانه في الحقيقة وأعادها إلى مكانها ...

وتمطى مبروك أفندي بكسل ثم التى بجسده المتعب على فراشه
ومد يده وأخذ يتحنس غنيمة الليلة بشغف كبير وقد ارتسمت على
شفتيه ابتسامة عريضة وهو يتخيل في ذهنه مقدار الحيرة والدهشة التي
سوف تستولي على إبنه المعلم زين العابدين عندما تسكتشف ضياع بعض
ملابسها من فوق حبل الغسيل في الصباح ...

قريباً جداً



قصة الحياة المصرية في أبشع صورها

الكلام ..؟

كلا يا بنى .. سوف لا أقتلك .. فلسنا نحن بالجزارين الذين يقتلون لمجرد حب القتل مثل أبناء جلدتك ، وإنما نحن قوم ندافع عن مبدأ مقدس ونقاتل لإسترداد كرامتنا وحريتنا المسلوبة ، وإن نلجأ للقتل إلا اذا اضطرتنا الظروف الى ذلك ، وإن انتردد حين يحين الوقت عن تمزيق أجسادكم وسلب رؤوسكم كما كان يفعل الهنود الحمر ...

لمع ضوء مصباح المعسكر الكشاف وغمر الرمال بأشعته الباهرة ،
فإنبطح الرجال الثلاثة بسرعة على الرمال الناعمة ، وانتظروا حتى جاوزهم
ضوء المصباح الدائر وساد الظلام المكان مرة أخرى ...

وزحف أحد الرجال الثلاثة على الرمال مقتربا من سياج الأسلاك
الشائكة وأخذ يعمل في هدوء وبسريته على إفساح فجوة بينها تسمح
بمرورهم ثم تنهد في إرتياح وهمس لزملائه ليتبعوه ، وبعد برهة كان الرجال
الثلاثة في داخل المعسكر ...

وتقدم الرجال الثلاثة في خفة وبدون أن يسمع لأقدامهم العارية أى صوت
صوب كومة مرتفعة من الصناديق على بعد قليل من سياج الأسلاك الشائكة
وصعدوا فوقها وأخذوا يديرون أنظارهم في شتى الاتجاهات ...

كان المعسكر يسبح في ظلام دامس ولم يظهر أمام أعينهم غير أشباح
رصات الصناديق المرتفعة ومباني المخازن والورش المنحدرة الأسقف
المتناثرة في كل مكان وبعض الأضواء الباهتة التي كانت تلمع من بعيد ،
ولكنهم لم يتخذوا بهذا الهدوء الظاهر ، وكانوا يعرفون أن أجسادهم عرضة
لأن تكون هدفا لمئات الرصاصات التي قد تنطلق عليهم من مكان غير منظور
من حولهم في أى لحظة ...

لم تكن هذه هي أول مرة يدخلون فيها إلى معسكر التل الكبير ولكن
الأحوال الآن كانت تختلف تماما عما كانت عليه في الماضي ، وقد فقد

الإنجليز صوابهم وإنتابهم الذعر منذ إلغاء معاهدة سنة ٣٦ وأقاموا في كل جزء من أجزاء المعسكر الواسع نقط حراسة إضافية ، وأصبحت أصابعهم المرتجفة تسارع إلى ضغط زناد مدافعهم الرشاشة في قوة من يتشبث بشيء يبعث الإطمئنان إلى قلبه المرتجف ويطرد الذعر عن مشاعره الخائفة ، وذلك عند أقل حركة ولجورد الإشتباه . . .

وأخذت رياح شهر يناير الباردة تصفر في آذان الرجال الثلاثة وهم منبطعون على وجوههم فوق قمة الصناديق الضخمة ، فأحكموا لف ملفحاتهم الصوفية فوق وجوههم ، وتقدم أحدهم وهبط من فوق الصناديق وقفز إلى الأرض وأشار إلى زملائه فتبعوه في صمت .

ووقفوا برهة ، وأخرج كل منهم من بين طيات ملابسه مدفعاً رشاشاً صغير الحجم كسيف المظهر أخذ يركب أجزائه ويعدده الانطلاق ، ثم شرعوا أسلحتهم في أيديهم وأخذوا يتقدمون إلى جوف المعسكر في حذر واحتراس وهم ينقلون خطواتهم في الظلام كالأشباح ويسيروا في ظلال رصات الصناديق المرصوفة المرتفعة وجدران أبنية المخازن والورش .

كانوا يعرفون مقسدار الأخطار التي تنتظرهم كلما توغلوا في جوف المعسكر ، ولكن لم تبد على أحدهم دلائل الإكتراث ، ولو لا شعورهم بأهمية المهمة الملقاة على عاتقهم لما التزموا مثل هذا الحرص الشديد وهم يتحركون من مكان إلى آخر في طريقهم إلى الداخل ، ولساروا إلى هدفهم في خط مستقيم بدلا من إضاعة الوقت في كل هذا اللف والدوران .

كانوا قد صمموا على إنجاز المهمة الخطيرة التي قدموا من أجلها ، وأقسموا على أن لا يعودوا قبل الفراغ منها وقبلوا بصدر رحب اقتحام عرين الأسد رغم أنهم كانوا يعرفون إن كل من سبقهم لأداء هذه المهمة لم يعد غير جثة هامة ممزقة بعشرات الرصاصات .

وظلوا يتقدمون إلى الداخل في خطوات ثابتة لمدة طويلة ويسارعون إلى الاختباء في جوف أكوام الصناديق المرصوفة في كل مسكان كلما سحوا أنوار إحدى عربات الحراسة المصفحة يلمع من بعيد ، حتى وصلوا في آخر الأمر إلى أحد الطرق المرصوفة فاقتربوا خائف أحد المباني القليلة الإرتفاع وأخذوا يفحصون المسكان بنظراتهم ...

كانوا يعرفون جيدا طريقهم إلى داخل المعسكر ، ولذلك فانهم توقفوا ليتدبروا أمرهم عندما وجدوا أنفسهم قد تركوا خلفهم الجزء الخاص بالمتحازن والورش وابتدأوا في دخول الجزء الخاص بسكنى الجنود

كان لابد لهم من اختراق هذا الطريق والسير في وسط الخيام والأكشاك العامة بالجنود ونقط الحراسة الكثيرة للوصول إلى هدفهم الذي يقع في الطرف الآخر من المعسكر ، ورغم الأخطار العديدة التي كانت تتربص لهم في كل مكان حولهم في الظلام فإن الرجال الثلاثة لم يترددوا في الإلقاء بأنفسهم على الأرض والزحف في هدوء بين أشباح الخيام والمباني المنخفضة ...

وظلوا زمنا طويلا وهم يزحفون في حرص وحذر كقطع متحركة من الظلام حتى لاح لأعينهم في آخر الأمر ميدان صغير ، توقفوا عندما إقتربوا منه واقتربوا خلف سياج قصير من الأشجار المتشابكة وأرسلوا عيونهم الفاحصة في كل اتجاه .

كان الميدان ضيق الإتساع يتفرع منه أربعة شوارع مرصوفة ، وعلى يمينهم يرتفع مبنى منخفض لإحدى دور السينا الخاصة بالجنود ، وأمام مبنى السينا عبر الطريق كان هناك سياج قليل الإرتفاع من القماش المقوى يحيط بعدد قليل من الخيام خاصة بسكنى رجال بوليس القسم الخصوص الإنجليزى ، ويرتفع من وراء السياج كوخ خشبي طويل ذو سقف من الصاج منحدر من على الجانبين ، ولا يختلف مظهر مبنى الكوخ عن

مبانى الورش والمخازن إلا أنه أقل حجماً ، وكان هذا الكوخ مقراً لمساكن
رجال بوليس القسم المخصوص الرهيب ، ويليه مباشرة كوخ آخر مشابه له
مخصص لتشغيل العمال المدنيين ، ثم بعد ذلك مبنيان صغيران خاصان
برجال البوليس المصرى ، وفى الجانب الآخر على يمين الطريق ارتفعت
أشباح مساكن رجال البوليس الجربى الانجليزى ، ومن خلفها المدينة
الصغيرة المخصصة لسكنى عائلات الجنود ...

والتصق الرجال بالأرض وهم يحبسون أنفاسهم ، حين شعروا بأن
هدفهم قد أصبح على مدى ذراع منهم وإستعادوا فى ذهنهم صوت
رئيسهم القوى وهو يلقنهم تعليماتهم ...

— لابد من إنجاز هذه المهمة على أى وجه ، ولا تترددوا إذا
وجدتم أن كل المنافذ قد سدت فى وجوهكم ولا سبيل أمامكم لانتفاضة ،
فى إطلاق النار عليه وإراحته من كل هذا العذاب فإن الرجل لن يستطيع
بلغت شجاعته وقوة إرادته من أن يصمد طويلاً لمثل هذا التعذيب
الجهنمى وسوف تخونه شجاعته رغماً عنه وتتضعضع إرادته ويعترف
الانجليز بكل شئ ...

وصمت الرجل برهة قبل أن يقول بصوت مملوء بالأسى ..

— إننى أعرف الناس بشجاعة على كما أعرف أنه خير من أنجبت
النساء من الرجال وأتمنى لو فقدت نور عيني لأستعيده إلى جوارى مرة
أخرى . . . ولكننا فى موقف دقيق يجبرنا على التضحية بهذا الرجل الباسل
لإفقاذ مئات الرجال الذين تتوقف حياتهم على كلمة تخرج من بين شفثيه
وهز الرجل كتفيه فى حزن وهو يقول متمماً حديثه :

— وعلى أى حال فهو لن يعيش بعد أن يفرغ منه رجال بوليس

تذكر الرجال هذه الكلمات كما تذكروا آخر توصية لرئيسهم قبل أن يستديروا للذهاب في مهمتهم الخطيرة .

— لا تدعوا أحدا منكم يسقط حياً بين أيدي الإنجليز ولا ترددوا لحظة واحدة في إلهاب رؤوسكم بالرصاص إذا رأيتم أن جميع منافع الحرب قد سدت في وجوهكم ودعوهم يقبضون على جثث هامة لا تتكلم .
وعى الرجال الثلاثة تعليمات رئيسهم وعزموا على تنفيذها بحذافيرها لأنهم كانوا يعرفون جيداً النتائج الخطيرة المترتبة على الإخلال بحرفية هذه التعليمات .

كان رئيسهم رجل ينبض كل عرق في جسده بالوطنية الصادقة ويشع من عينيه بريق قوى من الإيمان بعدالة قضية وطنه ، ولا يعلم أحد من أين قدم واسكنهم وجدوه فجأة ذات يوم بينهم ينفخ في بوق النضال بحماس أشعل نيران الوطنية في قلوب الجميع ودفعهم لأن يلتفوا حوله مكونين فرقة مرعبة من الفدائيين أصبحت تقاوم مضاجع الإنجليز وتبحث الرعب والفرغ في قلوبهم ، وعندما سمع الرئيس بهدم قرية كفر عبده في السويس ثارت ثائرتة وأخذ يهز يديه في وعيد والزبد يتناثر من فمه وهو يعلن سخطه على هذا الإعتداء الشنيع وأقسم على الانتقام من الإنجليز إلتقاماً مروعا يكفي لأن يطغى نيران الغضب والحق التي أثارها هدم كفر عبده في عروق المصريين ، وتفتق ذهنه عن خطة جهنمية يمحي بها معسكرات التل الكبير الضخمة من الوجود .

كانت خطته في غاية البساطة ولا يتكلف تنفيذها أكثر من بعض الجرأة والبراعة في التنفيذ ، وقد أشرف الرئيس بنفسه على كل التفاصيل

وأخذ يعمل في هدوء وسرعة على توزيع رجاله للعمل في مختلف المخازن والورش ونشرهم في كل مكان من أرجاء المعسكر الكبير ، كما عمل رجاله المنتشرون في داخل المعسكر على استئانة بعض المصريين الذين يعملون في داخل المخازن والورش إلى جانبهم حتى يصبح لهم أعوان في كل بقعة من المعسكر ، وكانت خطته سهلة جدا في تنفيذها ، وكان ينتظر بفارغ الصبر وصول شحنة الصناديق المحتوية على القنابل الزمنية من القاهرة حتى يقوم بتوزيعها على جميع رجاله المنتشرون في كل مكان ويقوم كل منهم بدوره باخفاؤها تحت طيات ملابسهم وانتهاز فرصة مناسبة وتركها في مكان بعيد عن الأنظار في داخل المحل الذي يعمل فيه ، وكان ينوى ضبط جميع القنابل الزمنية على ساعة واحدة حتى تنفجر جميعها في وقت واحد وتنتشر النيران في المعسكر من أوله إلى آخره ويدب الهرج في كل مكان ويصبح المعسكر الكبير قطعة واحدة من الجحيم بعد مدة قصيرة من حدوث الانفجار ، ولن يكون من العسير بعد ذلك على قوة صغيرة من الفدائيين اصطبياد الجنود المذعورين برصاصهم ...

ولم يذس الرئيس أى شيء من التفاصيل الدقيقة وخصص نفرا من رجاله وكل إليه مهمة نفس محطات إطفاء الحريق الصغيرة المنتشرة في المعسكر ، كما وكل إلى نفر آخر مهمة قطع الأسلاك التليفونية وحراسة جميع الطرقات المؤدية إلى المعسكر لعزله عن الخسارج ومنع النجندات من الوصول إليه ...

كانت خطة جهنمية حقا وكانت إذا تحققت ستكون ضربة قاضية تزلزل الأرض تحت أقدام القوات الإنجليزية وتصيبهم بخسائر فادحة يلزمهم أعوام طويلة ليقيموا من نتائجها ، وكان نجاحها مؤكدا لو أن القنابل الزمنية كانت قد وصلت في موعدها ولكن وصولها تأخر أياما

كثيرة رغم الرسل العديدة التي كان الرئيس لايسكف عن إرسالها في كل ساعة إلى القاهرة مستعجلا إرسال شحنة القنابل ...

وكان لا يمكن لمثل هذه الخطة الضخمة التي يشترك في تنفيذها أشخاص يعددون بالآلاف أن تظل سرا زمنا طويلا ، وسرعان ما تسربت أنباءها للانجليز ... و فجأة وبدون سابق إنذار قبض الانجليز على مساعد الرئيس الذي كان يشرف على تنفيذ الخطة في داخل المعسكر متخفيا تحت ستار العمل في أحد المخازن ...

كان على ... مساعد الرئيس ... شاباً تخرج حديثا من إحدى الجامعات وترك كل شيء وراءه وقدم إلى قرية القرين التي تقع في ظهر معسكرات التل الكبير وكرس كل جهوده للدفاع عن قضية بلاده ، وكان رغم حداثة سنه واسع الحيلة شديد الذكاء جرى إلى حد التمور يتكلم الانجليزية بطلاقة ، ولم يكن من العسير على مثل هذا الشخص أن يلفت إليه أنظار الرئيس ويجعله يعجب به ويتخذ منه مساعدا له ويبحث به للعمل داخل المعسكر لاستطلاع الأخبار والإشراف على تنفيذ خطط الهجوم من الداخل ...

وتلقت أيدي رجال بوليس القسم المخصوص على لتذيقه ألوانا من العذاب الذي يعيد إلى الأذهان ذكرى محاكم التفتيش الأسبانية الرهيبة ، تحملها الشاب الباسل في شجاعة نادرة ولم تخرج من بين شففيه كلمة واحدة حتى لا يوقع بعشرات الموظفين والعمال المصريين الذين يعملون في مخازن الصيانة الانجليزية وورشها ويبيتون في الخيام المخصصة للموظفين المدنيين بداخل المعسكر .

وكان الرئيس يعرف أن الاحتمال حدودا ، كما كان يخشى أن يصيب العمال المشتركين في الخطة الفرع والرعب وأن يولوا الأدبار هاربين

وتفشل بذلك خطته التي كلفته جهدا كبيرا للاستعداد لها ، ومنذ أن بلغته أنباء القبض على مساعده وهو يرسل الرسل تياغا لانتزاعه من بين براثن رجال القسم المخصوص ، ولكن مرت لیسالی طويلة والرسل تدخل إلى المعسكر ولا تخرج منه إلا في عربة تلقى بحششهم المنخرقة بمئات الرصاصات على الرمال في خارج المعسكر مما حدا به إلى المجازفة وإرسال أقرب الناس إليه وأكثرتهم شجاعة وجراءة والذين يعترفون تفاصيل الخطة بأكملها ويقدرّون تماما أهمية المهمة الخطيرة الملقاة على عاتقهم ...

وارتفع في هدوء الليل صوت عواء خفيف بعث الرعب إلى قلوب الرجال الثلاثة وهم رابضون خلف سياج الأشجار القصير وهمس أحدهم في أذن زميله

— الكلاب ... !

وعاد إلى أذهانهم فورا وهم يسمعون زئير الكلاب المتوحشة الذي كان يصل إلى آذانهم من أحد المباني المنخفضة عبر الطريق بجوار مكاتب البوليس الحربى الإنجليزى ذكرى ذلك المنظر المروع الذى شاهدوه فى صباح هذا اليوم عندما اندسوا بين العمال وتسلموا إلى داخل المعسكر واقتربوا من ثكنات البوليس الحربى لاستطلاع الأخبار ودراسة المكان دراسة وافية قبل الإقدام على مغامرتهم فى المساء ...

كان المنظر الذى شاهدوه فى هذا الصباح يبعث الرعب إلى أشد القلوب شجاعة ويميت المقاومة فى أشد النفوس استبسالاً ، كما كان يعبر عن مقدار وحشية أساليب الإنجليز فى معاملتهم لأسراهم ...

كانت الكلاب البوليسية المدربة مشدودة إلى سلاسل غليظة مثبتة فى الأرض فى دائرة واسعة ، وكانت السلاسل من الطول بحيث لا تسمح للكلاب بالوصول إلى الدائرة الضيقة التى وقف فى وسطها مساعد الرئيس

يحدد في السكّاب المتوحشة في رعب وهي تهجم عليه في قوة من جميع الاتجاهات وتزأر في وحشية جعلته يفقد وعيه ويتراجع رجماعه إلى الخلف لتلقفه مخالب السكّاب الهاجّة فيندفع إلى الأمام في جنون ليجد السكّاب المربوطة في النصف الآخر من الدائرة على استعداد لاستقباله لتمزق ثيابه وتثخن جسده بالجراح فيرجع إلى الوراء مرة أخرى و...

ولم تقو اعصاب الرجال الثلاثة على متابعة هذا المشهد المروع فتسللوا إلى الخارج في صمت ليعودوا في منتصف الليل لإنقاذ مساعد الرئيس التمس... وشق الظلام من بعيد مصباحان كشافتان لإحدى عربات الحراسة المصفحة فالتصق الرجال الثلاثة بالأرض وحبسوا أنفاسهم حتى مرت العربة واختفت عن أنظارهم وساء الظلام المسكان مرة أخرى.

وأشار أحد الرجال إلى زملائه ليتبعوه وأخذ يزحف على بطنه عبر الشارع الموصوف إلى الجانب الآخر من الطريق ثم أسرع الجميع بالاختباء خلف مبنى السينا المنخفض، وأداروا أبصارهم من حولهم في حرص، ولما لم يجدوا ما يبعث على الريبة تسللوا كالأشباح ناحية خسيظ حديدي يشق المعسكر وساروا في حذائه وتوقفوا عندما أصبحوا أمام المبنى الخاص برجال بوليس القسم المخصوص...

كان المبنى غارقاً في الظلام، ولم يظهر منه غير ضوء باهت كان ينبعث من خلال إحدى نوافذه المغلقة، وكان هذا هو الأثر الوحيد الذي يوحى بالحياة في داخله...

وزحف الرجال في احتراس شديد وقطعوا المسافة بين شريط السكة الحديد والمبنى في مده طويلة وارتدوا بجوار جدار المبنى وهم يحبسون أنفاسهم ثم وتحركوا للعمل في الحال من غير أن ينبادلوا كلمة واحدة كأن كل منهم

يعرف ما هو العمل المطلوب منه، ووربض اثنان منهم للحراسه على طرفى الكوخ
بينما تسلك الثالث واتجه صوب احدى النوافذ القريبة وأخذ يعالجا فى صبر
وأناه بدون أن يحدث أى صوت ..

ومرت دقائق قليلة حافله بالتوتر ، وكاد الهدوء المنخيم على المكان يقتل
اعصاب الرجلين الاربضان على طرفى الكوخ عندما أحس أحدهم بيد
المنس كستفه فى خفة فكتم بصعوبة صرخة كادت أن تفلت من بين شففيه
وأدار رأسه ليجد زميله الذى كان يعالج النافذة يشير اليه لأن يتبعه ، فنهض
فى صمت واتجه الاثنان صوب النافذة المفتوحة وأشارا إلى زميلهما الثالث
بعزمهما على الدخول ليتولى الحراسة بمفرده ...

وناول أحد الرجلين سلاحه لزميله ورفع نفسه بدون أن يحدث أى
صوت ونفذ من خلال فتحة النافذة إلى جوف المبنى المظلم وتبعه زميله بهدوء
أن ناوله سلاحهما ...

ووجد الرجلين نفسيهما فى حجرة ضيقة عميقة من الأثاث الا من
منضدة خشبية صغيرة ومتعدين من الحديد ، فتقدما فى صمت نحو باب
الحجرة وفتحاه فى هدوء ونفذوا إلى ردهة طويلة ضيقة الاتساع لا تسمح
لشخصين بالسير فيها متجاورين لحا فى آخرها بابا يشع من تحته خيط
رفيع من الضوء ...

وقبل أن يخطوا الرجلان خطوة واحدة الى الامام أرتفع من الخارج
هدير احدى العربات وهى تقف أمام الباب الخارجى للكوخ ووصل إلى
أسماعها أصوات أقدام أشخاص تقترب من الباب فأسرعوا ونفذوا من خلال
باب آخر مفتوح على شملهم إلى حجرة واسعة يسودها الظلام والتصقعا
بالخائط وجلسوا أنفاسهم وقد شرع كل منهما مدفعه الرشاش فى يده .

ونفذ القادمون من الباب الخارجى واتجهوا مباشرة إلى الحجرة المضادة في آخر الردهة وأغلقوا الباب خلفهم ، فتمنفس الرجلان الصعداء وظلا واقفين في مكانهما ينهستان الى الأصوات التى ارتفعت من الحجرة المضادة ... وفجأة شق سكون الليل صوت صرخة فظيعة أشبه بصرخة حيوان يتعذب ، فارتجف الرجلان في مكانهما وهمس أحدهم في أذن زميله .
— لقد بدأوا فى استحواءه مرة أخرى ...

ولمعت عيون الرجلين فى الظلام ببريق مخيف ، ووقفا يتدبران أمرهما ، كان لا بد لهم من انقاذ هذا الشخص البائس الذى اطلق هذه الصرخة المملوءة بالآلم التى صكت نساءهم الآن ، وانزاعه من بين مخالب رجال بوليس القسم المخصوص .. ولكن كيف ؟

وانبعثت من الغرفة المجاورة صرخة أخرى صرخة طويلة مملوءة بالعذاب الهبت دماء الرجلين وجعلتهما لا يطيعقان الانتظار اكثر من ذلك فتقدم أحدهما وفتح باب الحجرة بدون أن يحدث أى صوت وتبعه زميله واتجه الاثنان إلى باب الحجرة المضادة التى تنبعث الأصوات من جوفها .

وضرب أحد الرجلين الباب بقدمه فى عنف ، وقبل أن يستعيد الرجل المشدوهين فى الداخل أعصابهم من هذه المفاجأة الغير منتظرة ، وجدوا أنفسهم يحقدون فى فوهات المدافع الرشاشة التى شهرها الرجلين فى أيديهم . ورمشت عيون القادمين عندما قابلت الضوء القوى الذى كان يغمر الحجرة بعد أن كانا قد مكثا مدة طويلة فى الظلام ، ولكنهما استطاعا أن يلبا بما يجرى فى داخلها من أول نظرة ...

كان - على مساعد الرئيس - مشدود الوثاق إلى مقعد خشبي ضخم وقد سالت الدماء بغزاره من كل جزء فى جسده وبدأ عليه التخاذل والاعياء

وقد انحنى فوقه شخص كان يمسك بآله حدة حادة يعيث بها بين اظافر يدي
مساعد الرئيس الباسل ، وإلى جوار المقعد وقف شخص آخر أسمر الوجه
يرتدى الملابس المدنية عرف فيه الرجلان أحد الخونة المصريين الذين
يتحرق الفدائيون شوقا لاقتصاصه منذ زمن بعيد ، ومن حولهم تنثر أربعة
رجال يحملون رتبا عسكرية مختلفة ...

وحرك أحد الرجلين مدفعه في يده وطلب من الموجودين في الغرفة التحرك
صوب أحد الجدران بينما تحرك زميله في سرعة وتقدم من المقعد المشدود فوقه
مساعد الرئيس وأخرج من جيبه مطواة حادة قطع بها وثاقة في سرعة
ثم عاونه على الوقوف ، ولكن الرجل الباسل لم يقو على التحرك من مكانه
وتهالك ساقطا على الأرض في ضجة كبيرة ...

وانحنى الرجل على زميله يريد أن يحمله على كتفه فتأوه هذا في ألم
جعل زميلهما الواقف بجوار الباب يتحول بنظره عن الرجال المصطفين
بجوار الجدار وقد ندت عيناؤه بدمعة مشقة تأثرا لما وصلت اليه حالة
مساعد الرئيس السيء الحظ ، ولم تستغرق نظره أكثر من ثوان قليلة ،
ولكنها كانت كافية لأن يخرج أحد الضباط المصطفين بجوار الحائط
مسدسه ويطلقه عليه ...

وأحس الرجل بالرصاصه وهي تحرق صدره ، ولكنه لم يفقد رباطه
جأشه وانبطح على الأرض في حركة آليه ... وفتح فوهة مدفعه
الرشاش وامطر الرجال الواقفين بجوار الحائط بسيل مجنون من
الرصاص .. وظلت أصابعه تضغط على الزناد في قوة لاشعوريه ، ثم توقف
خروج الرصاص من مدفعه عندما انكفأ على وجهه بعد أن خارت قواه
من تأثير الرصاصه التي أصابته ...

حدث كل هذا في سرعة مذهلة ، وجد معها الرجل الآخر صعوبة شديدة في تفهم ما حدث ، ولكنه نفض عنه غبار المفاجأة وترك زميله ملقى على الأرض وانحنى وتناول مدفعه الرشاش الذي كان قد وضعه بجواره الى أن يحمل مساعد الرئيس على كتفه ، ثم أسرع الى زميله الآخر الرائد بجوار الباب فوجده قد فارق الحياة ، فرفع رأسه وتطلع إلى ناحيته رجال بوليس القسم المخصوص ووجدهم مكومين بجوار الجدار جثثا هامدة وقد انعقدت فوقهم سحابة كثيفة من دخان البارود ، فرجع إلى مساعد الرئيس وحاول أن يحمله على كتفه ، ولكن هذا الأخير نظر اليه بعينان تفيضان بالشكر وتمثلان بالتضحية وأشار اليه في حركة ضعيفة نحو الباب .

وارتفعت من الخارج في هذه اللحظة أصوات أقدام تهول بسرعة من كل اتجاه صوب الكوخ وامتلا الجو في الخارج بالضجة وانبعثت الصيحات من كل جانب ، فوقف الرجل مترددا ولكن مساعد الرئيس أشار اليه مرة أخرى نحو الباب ، وهو ينظر إلى مدفع زميله نظرة معبرة تفيض توسلا ورجاء ...

كان موقف الرجل في غاية الخطورة فهو محصور بين واجبه نحو زميله الرائد على الأرض وبين أبالسة الجحيم التي انطلقت من عقابها مقتربة منه ...

ودوى في الخارج أصوات بعض الطلقات النارية وامتلا الجو باللغزات وصرخات الألم فعرف الرجل أن الانجليز قد حاصروه وهما وأن زميله المسكف بالحراسه في الخارج يقوم بواجبه ، فنفض عنه تردده وسارع إلى الخارج لتجدة زميله ، ولكن صيحة عتاب وألم صدرت من فم على الرائد على الأرض أوقفته ...

وتذكر الرجل أوامر رئيسهم الصارمة وتحول إلى صديقه الباسل وهو يحس بنفسه في حلقه ، والتفت عيون الرجلان ... عيناان تمتلئان ألما وعذابا .. وأخرتان تفيضان بالنبيل والتضحية .. وفهم على مقدار الثورة التي تشتعل في دماء زميله والمهركة الهائلة التي يخوضها مع ضميره فيذل جهدا كبيرا حتى حرك يديه وأشار الى مدفعه الرشاش في حركه ذات معنى ...

ودوى في الحجرة صوت ثلاثة رصاصات تراخى على اثرها جسد مساعد الرئيس وقد ارتسمت على شفتيه شبح ابتسامة سعيدة بينما عض الرجل الآخر على شفتيه في قوة شم تحول كالوحش الهائج لشجدة زميله بالمحضور في الخارج ...

ولمح عندما خرج من باب السكوخ شبح زميله يربض خلف عربة صغيرة من عربات الجيب وهو يطلق الرصاص باستمرار من مدفعه الرشاش فارتمى إلى جواره وهو لاهث الأنفاس وفتح بدوره غوهة مدفعه ...

وإنبعث الضجة من كل مكان من حولهما ، وكانت كل ثانية تمر تزيد من موقفها سوءا ، وتلفت الرجلان حولهما بنظرات حيوان حبيس وقد ظهر لهما بجلاء انهما لا يستطيعان الاستمرار في المقاومة أكثر من دقائق معدودة ، وصرخ أحدهما لزميله بصوت مرتفع ايعلو على اصوات الطلقات النارية التي كانت تزار من حولهما .

— لا تنس وصيه الرئيس ...

فحول الرجل الآخر رأسه إلى زميله وأوما إليه في فهم وتحول مرة أخرى وأخذ يطلق الرصاص ، وهو يدور بعينه في نفس الوقت باحثاً عن

يخرج من مأزقهما ، ووقعت نظراته على سياج من الأسلاك الشائكة خلف شريط السكة الحديد ارتفعت من وراءه اكوام كبيرة من الصناديق السوداء ، فلفت نظر زميله اليه وقال له في حزم :

— ازحف بسرعة نحو السياج واختبئ بين الصناديق وسوف أعطى انسحابك ..

ولم يتردد الرجل الآخر ، وتحرك وأخذ يزحف على بطنه ملتجئاً بالظلام بينما بقي زميله وراء العربية الصغيرة التي كان الرصاص يتساقط عليها كالطر الغزير ..

واصاب رصاصة ما كينة العربية واشتعلت فيها النيران وبعد ثوان قليلة أصبحت العربية كلها شعلة من النيران أضاءت المكان من حولها بنور ساطع ، وأحس الرجل الرابض خلفها بحرارة النيران وهي تلفح وجهه وغدا جسده هدفاً ظاهراً لعيون أعدائه ، ولمح أشباحاً كثيرة وهي تقفز من كل مكان في الظلام متجهين اليه ، وبدون تردد حول فوهة مدفعه نحو صدره وضغط الزناد ، وعندما وصل اليه الجنود الانجليز وجسده قد أصبح جثة هامدة ووجدوا اصابعه مطبقة في قوة على زناد مدفعه والرصاص يتدفق الى صدره ...

وأحس الرجل الأخير الذي كان قد نجح في التسلل إلى ما وراء الأسلاك الشائكة والإختباء بين كومه الصناديق المرتفعة ، بغضه في حلقه وهو يرى على ضوء العربية المشتعلة مصير زميله المؤلم ، وتنهى في أسمى وكاد أن يفتح فوهة مدفعه على الجنود التي كانت قد تجمعت في تلك اللحظة بكثرة عجيبة حول مبنى بوليس القسم المخصوص لولا أنه رأى حماقة هذا التصرف ، ورأى أن من واجبه أن يعود إلى القرية لينقل إلى الرئيس تفاصيل ما حدث ، حتى يوفر عليه مشقة إرسال بعثات أخرى لانقاذ

مساعدته ، ولكي يطمئن في نفس الوقت إلى أن الانجليز لم يعرفوا بعد
تفاصيل خطته ...

وانتهز الرجل فرصة الاضطراب الذي استولى على الجنود المجتمعين حول
العملة المشتعلة وتسأل بهدوء ملتحفاً بالظلام ، ولم يبتعد أكثر من بضعة خطوات
حتى دوى في أرجاء المعسكر الكبير صفير عربات البوليس الحربي المزعج ،
ولمح اعمدة الأنوار الكاشفة وهي تشق الفضاء وتكتسح الرمال بضوئها
الباهر في دورات سريعة بحثاً عن جيش الفدائيين الذي خيل اليهم في
اضطرابهم انه قد احاط بالمعسكر من جميع الجهات

وضحك الرجل بصوت خافت في سخرية ثم أسرع في خطواته محتثماً
بظلال الصناديق العالية والظلام المتكاثف الذي يغمر المكان ، حتى وصل
إلى الطريق المرصوف ، فتوارى خلف أحد المباني المنخفضة ، وأرسل
بصره إلى الطريق فوجده شعلة من الأنوار وبهر عينيه أضواء عدد
كبير من مصابيح عربات الحراسة الكاشفة وهي تدور في شتى
الاتجاهات ، فأرجع رأسه إلى الوراء ووقف في الظلام يتدبر موقفه ...
وفجأة ... وصل إلى أذنيه من بعيد صوت زئير مخيف يرتفع في هدوء
الليل ، فارتجف رغماً عنه وقفز إلى ذهنه ذلك المنظر المروع الذي شاهده
في هذا الصباح ...

وأيقن الرجل أن منافذ الإفلات قد سدت جميعها في وجهه وأن
الكلاب البوليسية المتوحشة سوف تمسك بتلابيبه بعد دقائق ، ولكونه لم
يسمح للخوف بالتسلل إلى نفسه ، وامسك بمدفعه في قوة وربت عليه في
عطف وحنان وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ...

كان يعرف انه من العيب أن يحاول اجتياز الطريق المرصوف إلى الخارج ، أو الخروج إلى العراء فسوف يمسك به الحراس بمجرد ظهوره ، ولذلك فإنه تراجع إلى وراء المبنى المنخفض وتسلكه وارتمى على وجهه فوق سطحه وأخذ يراقب الطريق بعينيه الحادتين .

لم يكن يود أن يموت قبل أن يرسل إلى الجحيم بعض جنود الإنجليز ، ووجد أن في هذا عزاء لموته وتسلية لروحـه حتى لا تشعر بالوحدة في خلال رحلتها الطويلة إلى السماء ، ولذلك فإنه ربض في مكانه منتظرا الفرصة السانحة لتنفيذ عزمه مع الاحتفاظ لنفسه ببعض الطاقات في مدفعه ليفرغها في صدره قبل أن يطبق عليه جنود الإنجليز ...

و فجأة لمت عيناه في أمل عندما أبصر باحدى عربات الحراس المصفحة وهي تبرز من منعطف في الطريق يتقدمها مصباحاها الكشافان وقفزت إلى ذهنه وهو يراقبها وهي تتقدم في بطنه إلى ناحية المكان الذي يختبئ فيه فكرة جنونية عول على تنفيذها في الحال ...

وانتظر الرجل في صبر حتى جاوزته العربة ، ثم أرسل نظرة سريعة في الشارع فوجده هادئاً ولم يلبح لحسن الحظ أنوار عربات أخرى قادمة من نفس الطريق ، فقفز بخفة الفهد من فوق سطح المبنى المنخفض وأخذ يعدو خلف العربة ثم مديده وتعلق بمؤخرتها وظل رابضاً في مكانه مدة قصيرة يستجمع أنفاسه اللاهثة ...

كانت العربة المصفحة من النوع المقفول من جميع الجهات ذات فتحة مستديرة في أعلاها يبرز منها فوهة مدفع رشاش يدور في جميع الاتجاهات ، وينفذ الركب إلى داخلها من خلال فجوة واسعة في أعلا الفتحة

المستديرة التي تبرز من فوق سطحها . . .

وزحف الرجل في بطنه وحذر إلى أعلا العربة حتى وصل إلى سطحها
ثم راسه باحتراس شديد والتي نظرة في جوفها ، فلبس شخصين يرتديان
الملابس العسكرية ، يجلس أحدهما وراء مقعد القيادة بينما كان الآخر
مشغولا بتحريك مصباح العربة للكشاف في حركات سريعة يفحص
الطريق . . .

وفوجيء الجنديان الجالسان في جوف العربة بصوت يصيح بهم باللغة
الانجليزية يأمرهم بعدم الحركة ، وأداروا رؤوسهم إلى الوراء وأخذوا
يحمقون في ذعر في فوهة المدفع الرشاش الذي يطل الموت من
فتحة المظلمة . . .

وحرك الرجل مدفعه في يده مرة أخرى وطلب من السائق أن
ينحرف بالعربة عن الطريق المرصوف ويدخل بها إلى جوف الرمال ،
فتردد السائق برهة ولكنه قرأ في نظرات الرجل الرابض فوق سطح
العربة مادفعه لأن يسرع إلى تنفيذ ما طلب . . .

وأمر الرجل السائق أن يوقف العربة خلف جدار أحد المخازن ،
وأومأ إلى الجنديين للخروج من العربة وأيديهم إلى أعلا ، وابتعد قليلا وأخذ
يراقبهم وهم يتحركون لتنفيذ أوامره وهو على أتم الاستعداد لإلهاب رؤوسهم
بالرصاصة عند أقل بادرة تصدر منهم توحى بالمقاومة . .

وصعد الرجل الجنديين وهما واقفان بجوار جدار المخزن بنظراته ،
ثم أشار إلى أكبرهما حجما وطلب منه أن يخلع ملابسه ، وعندما تردد
الجندي في إطاعة الأمر زام الرجل بشفتيه في وحشية وتحركت أصابع
يديه في اتجاه زناد المدفع الرشاش فاسرع الجندي وأخذ يخلع ملابسه

بدون أن يتفوه بكلمة واحدة وهو يرتعد بشدة ...
وأخذ الرجل يبدل ملابسه بسرعة كبيرة بعد أن أمر الجنديين بإدارة
وجهيهما إلى جدار المخزن ورفع أيديهما إلى أعلا ، ثم تنهد في ارتياح
والقى إلى الجندي المرتدي ملابسه بملفحته الصوفية وطلب منه أن يشد بها
وثاق زميله الذي كان واقفا يرتجف في شدة من البرد والخوف معا ..

لم تستغرق عملية إبدال الملابس وشد وثاق الجندي الآخر وتكسيمه
أكثر من دقائق معدودة ، وبعد أن جر الجندي زميله والقى به في جوف
كومة مرتفعة من الصناديق سار أمام الرجل وهو يرتجف ودخل جوف
العربة والرجل في أثره ...

وطلب الرجل من الجندي أن يقود العربة المصفحة في اتجاه باب
المعسكر الشمالي الذي يقضى إلى قرية القرين ثم أخذ يلقي عليه في سرعة
وحزم بتعليماته باللغة الانجليزية ...

- سوف يستوقفك الحراس عندما تصل إلى البوابة ، ويسألونك
عن سبب خروجك إلى خارج المعسكر في هذه الساعة ، فكن غافلا وانتحل
أى سبب ولا تحاول أن تشير شبهتهم بأي طريقة ، وسوف نمر بسلام
إذا نفذت ما أقوله لك ، وسأظل أنا طوال الوقت بجوار مدفع العربة
الدائري وإن أستغرق أكثر من ثوان قليلة في قتل جميع حراس البوابة
إذا بدرت منك أى حركة توحى بالمقاومة ، وإن يكون من العسير
على بعد ذلك أن أقتلك وأقود العربة بنفسى إلى الخارج ، وقبل أن يتمكن
أحد من معرفة ما حدث سوف أكون قد ابتعدت أميالا طويلة خارج
المعسكر ...

وأوما الجندي برأسه في خوف ، فابتسم الرجل في مرح ، ورجع

بظلمه إلى الوراء وأخذ يراقب الطريق من خلال فتحة صغيرة في جدار
العربة، وأطمئن عندما رأى العربات الأخرى تمر بهم في سرعة بدون
أن تلقى اليهم التفاتا . . .

وهفت نفس الرجل إلى التدخين فتحمس ملايسه العسكرية التي
يرتديها وعثرت أصابعه على علبة من التبغ الانجائيزي أخرجها وأشعل
منها لفافة أخذ يجذب أنفاسها في عمق ولذة كبيرة . .

والتقى الرجل بباقي لفافته على الأرض وداسها بقدمه ثم انتصب واقفا
عندما لاحظت لعينيه أضواء البوابة ، ووضع مدفعه الرشاش إلى جواره
بعيدا عن متناول يد الجندي الذي يسوق العربة ، ثم أدخل رأسه في جوف
القوة المتسعة وربض بجوار مدفع العربة الدائر وهو يحبس أنفاسه . .
وبرز عدد من الجنود من كوخ خشبي صغير قائم بجوار البوابة
عندما شاهدوا أضواء العربة القادمة نحوهم ولوح أحدهم لها بمصباح ذو
ضوء أحمر في يده . . .

وتوقفت العربة وارتفع من الخارج أحد الأصوات متسائلا فرد
عليه الجندي الجالس خلف مقعد القيادة وقال بحكم العادة
- نحن ذاهبين في أثر بعض الرعاع الذين هربوا خلال الأسلاك
الشائكة . . .

وتقدم أحد الحراس وألقى نظرة إلى داخل العربة ، ورأى الجندي
الواقف خلف المدفع الرشاش ، ولم يرو جهة المختفي في جوف فتحة
المدفع الدائر فاقسم . . .

وقال حارس البوابة أخيرا عندما لم يجد شيئا يشير الشبهة .

- حسنا ...

وأشار رئيس الحراس إلى أحد الجنود ، فتقدم هذا ورفع العارضة الخشبية المتحركة التي تسد الطريق ثم فتح البوابة على مصراعها ، فتمحركت العربدة المصفحة في ببطء الى الخارج . . .

وتنهى الرجل الرابع خلف المدفع الرشاش في ارتياح وخفض رأسه وأخذ يمسح العرق المتصبب على جبينه رغم برودة الجو ، ثم طلب من الجندي أن يدور بالعربة ويسير قليلا بحذاء الأسلاك الشائكة حتى لا يثير شبهة حراس البوابة ، وعندما ابتعدت العربدة بمسافة كافية أمره بأن يستدير بها في اتجاه القرية . . .

وتوقفت العربدة أخيرا على مسافة قريبة من القرية ، وساق الرجل الجندي الذي ابتداء الاصفرار يكسو وجهه بشكل مريع إلى الخارج . . .
ووقف الجندي على الرمال وهو يرتجف في شدة ، ويحاول الكلام - ماذا ستفعل بي . . ؟

خرجت هذه الكلمات من بين شفطي الجندي المرتعدتين وهو يحدق في الرجل بخوف ، فتطلع إليه هذا الأخير وأخذ يفحصه بنظرانه ... كان الجندي شاباً يافعاً يوحى منظره بأنه لم يبلغ العشرين عاماً بعد .

وقال الرجل أخيرا وهو يتطلع إلى الجندي برثاء . . .
- أأستطيع أن أقول لي ما الذي يمنعني من قتلك ؟ . .

وازداد اصفرار وجه الجندي واهتزاز يديه وهو يقول في سرعة وبصوت مخنوق يكاد أن يغمض بالدموع . . .

- ولماذا تقتلني ياسيدي ؟ لقد نفذت كل ما طلبته متى وساعدتك على الإفلات من داخل المعسكر . .

وصمت الجندي برهة لكي يزدرد ريقه ثم قال في صوت

حافل بالرجاء ...

— أرجوك أن تدعى أرجع بسلام ، فإنك إن تجنى شيئاً من وراء قتلى ، وأنا وحيد والذى العجوزين اللذان سوف يقتلهم ولا شك خبر موتى ، كما أن لى خطيبة شابة تنتظر رجوعى بفارغ الصبر ...
ورفع الرجل رأسه فى سرعة وتصلبت نظراته وهو يقول للجندى مقاطعاً :

— يا لله السموات .. هل تظن أنك الوحيد الذى له والدين عجوزان سوف يقتلهم نأباً موته ، وإنك أنت فقط الذى له خطيبة تعد الدقائق إنتظاراً لرجوعه ...

واشتدت نبرات صوت الرجل واندفع يقول فى ثورقه وهو يحلق فى وجه الجندى الذى هرب منه الدماء ..

— وماذا عنا نحن ؟ أليس لنا آباء وأمهات ينتظرون رجوعنا ؟
أليس لنا خطيبات وزوجات مثلكم ؟
أليس لنا نفس الحق فى الحياة مثلنا لكم ؟
هل فكرتم فى هذا وأنتم تفتحون قوّهات مدافعكم الرشاشة على صدور المواطنين العزل الأبرياء ؟

هل فكرتم فى عدد الأمهات والآباء الذين ينتظرون أبناءى تعود ؟
هل فكرتم فى الزوجات التى جفت الدموع من عيونها من كثرة البكاء حزناً على أزواجهن الذين تحطمت أجسادهم تحت عجلات دبابتكم الثقيلة ؟ ...

هل فكرتم فى عدد الأطفال الذين تيمموا بدون وجه حق وسقط آباؤهم صرعى برصاص مدافعكم الرشاشة التى ترسلونها بعسير حساب

ونجرد التسليمية ؟ ...

وتوقف الرجل عن الحديث ليلتقط أنفاسه وأخذ يتأمل الجندي الواقف أمامه يستمع له بحيرة ودهشة كأنه يستمع إلى هذه الحقائق لأول مرة ، ثم قال أخيرا بصوت حافل بالمرارة

- لا ريب أنكم لم تسألوا أنفسكم هذه الأسئلة من قبل ؟ ولماذا استمر رجال جيشكم يعيشون في أرض بلادنا فسادا ويتركون وراءهم الخراب والدمار في كل مكان يحلوه به ، ولا شك أنكم قد ظننتم أننا جماعة من البرابرة المتوحشين الذين لا يستحقون الحياة

- لا أستطيع أن أقول أنك مخطئ في كلامك .. ولكن .. ولكنني حضرت الى هنا مرغما وأنا وزملائي نكره وجودنا في بلادكم بقدر ما نكرهه ، أنتم ولكنكم هي الأوامر كما تعرف ..

فتسال الرجل بهياج مقاطعا

- سحقا لهذه الأوامر .. لماذا لا تعلنون العصيان على مثل هذه الأوامر الجائرة ... أليس لكم عقول تفكرون بها ؟ لقد خلق الله الناس أحرارا .. فلماذا تتحدون التعاليم السماوية وتحملون الشعوب وتكبلوا أهلها بسلاسل الذل والاستعباد ؟

وأردف الرجل وهو يطلق من جوفه ضحكة ساخرة

- أم أنكم ... تعتقدون أن الحرية هي وقف عليكم فقط ؟

ورأى على المسكّن لحظة صمت ثقيلة بينهما كان الجندي يدور بعينيه من حوله في بأس بنظرات حيوان حبيس ثم تحركت شفاهه وحاول الكلام ولكنه وجد نفسه عاجزا عن التفوه بكلمة واحدة وارتفع صوت الرجل مرة أخرى

— هل تستطيعون .. مهيا بلغتم من قوة ايقصاف الزوابع عن الدوران في السماء ؟ وهل يمكنكم مهيا بلغتم من الجبروت ان توقفوا المطر عن الهطول وأن تمنعوا المياه من الفوران في المحيطات ... ؟
وضحك الرجل بوحشية وهو يقول متمهما

— انما نستمد من الإجابة على هذه الأسئلة الإيمان الذي يابها بحراره الكفاح ، ويجعلنا نستमित في الدفاع عن حريتنا التي هي هبة من السماء ... وسوف ترون بأعينكم عما قريب كيف ستثور الزوابع وترعد السماء وتنفور المياه في المحيطات .. فهذه هي سنة الطبيعة ، وعندما يحدث هذا سوف نقف نحن على مبعدة نراقبكم ونحن نضحك من اعماق قلوبنا وانتم تسورون في وسط العاصفة الهائجة ونستمع في تشفى لصرخاتكم الخائفة وانتم تسألون انفسكم ...

— ما هي الاسباب التي ترغنا على البقاء وسط هذا الجحيم .. ؟ وأؤكد لك انكم سوف لا تجدون إجابة على هذا السؤال ..
وتوقف الرجل عن الحديث ثم سأل الجندي بغتة .

— ماذا يكون شعورك لو استيقظت من نومك في أحد الأيام وفتحت عينيك لتفاجىء برأى قوات مصرية تحتل كل مكان في لندن ؟

وفتح الجندي عينيه في دهشة وهرش في رأسه بحثا عن جواب لهذا السؤال الغير متوقع وقفز الى وجهه رغما عنه علامات الاستنكار لمجرد الفكرة ..
وضحك الرجل ضحكة طويلة وقال وهو يتأمل قسما وجه الجندي المصفرة ويربت بالطاف على كتفه .

— كلا يا بنى ... سوف لا أقتلك ... فلماذا نحن بالجزارين الذين يقتلون لمجرد حب القتل مثل ابناء جلدتك المتمدنين ، ولماذا نحن قوم ندافع عن

مبدي مقدس ونقاتل لاسترداد كرامتنا وحريةنا المسلموبة ، وإن نلجأ
للقتل إلا إذا اضطررنا الظروف الى ذلك ، وإن نتردد حين يحين الوقت
عن تمزيق اجسادكم وسلخ رؤوسكم كما كان يفعل المنوود الحمر ...
وصاح الجندي غير مصدق آذانه

— هل ... هل تعني أنني يمكنني الذهاب ؟
وأوهأ الرجل برأسه مجيباً في صمت

ولم ينتظر الجندي أكثر من ذلك ، واستدار في سرعة وانطلق يعدو
يخمنون في اتجاه المعسكر كما لو كانت الشياطين تطارده ...
ووقف الرجل لحظة يحدق في ظهر الجندي ، ثم تنهد بعمق واستدار
وصعد الى جوف العربة المصفحة وتحرك بها صوب القرية النائمة ، وسرعان
ما اختفى في احشاء الظلام

اقرأ في مايو القادم



أقوى مجموعة من القصص الوطنية الملهمة ظهرت
في تاريخ الأدب العربي الحديث

ثلاث كلمات صغيرات .

أما معنى هذه الكلمات ، ومن يكون هذا « القميق » ، وذاك « التاروق » فهذا كان آخر شيء كنت أعرفه ، وإنما هي مجرد كلمات كانت قد علققت في ذهني من كتاب قديم كنت قد قرأته منذ سنوات لإسمه « المسامير في علم الصراصير » تأليف كاتب فطاحل ، وأشك في أن مؤلف هذا الكتاب نفسه يعرف معناها ، وأغلب ظني أنه كان قد اقتبسها من كتاب لمؤلف أقدم منه ، إل

رأيتها ، فأحببتها ، فتزوجتها ...

ثلاث كلمات صغيرات كانت تخرج من بين شفقي بطريقة آلية في محاولة يائسة للدفاع عن نفسي كلما سمعت تعليقات أصدقائي اللاذعة وهي تدور حول زوجتي الشمطاء ، وتعودت أن أتمم بها في صوت خافت بين شفقي بدون وعي كلما لمحت نظرات العجب والاشمئزاز تصوب نحوي من كل اتجاه وأنا سائر بجوار زوجتي العزيزة في الطريق ، ثم أصبحت أردد لها لنفسى لا قنبحها بأفنى لم أكن حقاً مفضلاً حين أقدمت على الزواج من هذه الشربة النسائية ...

وتنهدت في عني وأنا أجالس على أحد المقاعد الخشبية في عربة الترام الخالية ، وسألت أن أشغل نفسي بأي شيء لأطرد عن ذهني ذكرى زوجتي العزيزة ولو برهة قصيرة ، فأرسلت نظراتي إلى خارج نافذة عربة الترام وأخذت أراقب ناظر المحطة وهو جالس يتشابه في كسل بداخل الكشك الخشبي الصغير القائم في طرف الرصيف ويتأمل عربات الترام المتراصة أمامه بنظرات حاملة في اعجاب واعزاز ...

رأيتها ، فأحببتها ، فتزوجتها ...

خرجت هذه الكلمات مرة أخرى من بين شفقي رغماً عني عندما ارتدت أنظاري من خارج نافذة الترام واستقرت على مظروف كبير الحجم أصفر اللون يبرز من جيب سترتي الأيمن ، فددت يدي وأخرجته من جيبي وأخذت أعبت به بين أصابعي وأنا شارد الذهن ..

من يصدق أن كل مأساة حياتي يمكن اختصارها في مجرد ثلاث كلمات

صغيرات ١٩

إنها حقاً ثلاث كلمات . . . ولكننا تحوى بين حروفها ما يكفي لأن يملأ
مجلدات ضخمة . . . من الأكاذيب . . .
رأيتهما . . .

وهذه هي أكبر الأكاذيب ، فأنا لم يسبق لى قط رؤية زوجتى قبل ليلة
الزفاف ، وكان كل ما رأيته لها صورة لفاتة جميلة أسالت لعابى - عرفت
فيما بعد انها صورة لاحدى ممثلات السينما من التى تباع بكثرة بجوار سينما
أولمبيا - أحضرتهما لى إحدى الخطاطبات فى وقت كنت أفكر فيه جدياً ولأول
مرة فى الزواج . .

كنت فى ذلك الوقت قد اتممت العقد الخامس من عمرى السعيد منذ
سنوات، وقد ابتدأ الرومانزم يزحف فى وقاحة وجرأة غريبة إلى كل ركن
فى جسدى ، وكنت أريد أن أتقاعد عن العمل خصوصاً بعد أن انتقل
رئيسى فى المصلحة إلى رحمة الله وتسلم العمل بدلاً منه أحد زملائى
الألانيين الذين لا يراعون حقوق العشرة والزمالة . . .

كان رئيسنا السابق رحمه الله رجلاً ديمقراطياً بمعنى الكلمة ، وكنا
كلنا جميعاً نحبه ونقدره ونحترمه لأخلاقه السكرية وصفاته النادرة . وقد
تعودنا فى الأيام القديمة أن نمضى أنا وزملائى ساعات الصباح الأولى فى
الاستماع إلى نسكاته الباردة وحديثه السخيف ونحن لا نكف عن الضحك
من أعماق قلوبنا من منظر صلته اللامعة وكرشة المنتفخ . . .

وكانت ديمقراطية هذا الرئيس العظيم تتجلى بشكل واضح عند ما يكف
عن الحديث ويأخذ فى الإنصات إلينا ونحن نقص عليه ما عن لنا من السخافات

وهو يتصنع الاهتمام لحديثنا ورأسه لا يتوقف لحظة واحدة عن الاهتزاز في تأكيد لما نقول ، ولا تنقطع الضحكات الصغراوية عن الخروج من صدره الضخم وهو ينهت الينا كما لو كان ينهت إلى سمادة اليه المدير العام . . ولهذا لم يكن من العجيب أن نحببه جميعا ونحترمه وأن نشعر بعدم فقدته بفراغ هائل لا يعوض . .

وكان أمدنا أنا وزملائي كبيرا في أن يكون رئيسنا الجديد على خصال الرئيس القديم الطيبة ، لاسيما وأنه أحد زملائنا القدامى ، ولسكننا ما لبثنا أن شعرنا بالفرق الشاسع بين الاثنين ، وكان ذلك عندما جئنا الرئيس الجديد في مكتبه في أول يوم له في الرئاسة وأخذ يقص علينا لساعات طويلة حديثا سخيفا لا معنى له كان لا يجرؤ منذ أيام قليلة على مجرد التفرغ بكلمة واحدة منه ونحن لانكف عن الضحك ودق الأرض بأقدامنا في قوة اظهار الحماسنا الشديدة لما يقول ، وعندما حاولنا أن ندلى بدلونا في الحديث كما تمودنا ان نفعل مع رئيسنا السابق نجهم وجهه وأخفى رأسه بين كومة عالية من الملفات القديمة كان رئيسنا السابق رحمه الله يحتفظ بها دائما فوق مكتبه ليوم بها الجميع بخطورة مركزه ومسئولياته السكثيرة ، وتأكدنا بعد محاولات عديدة فاشلة بأن حضرة الرئيس الجديد رجل اناني بمعنى الكلمة يعرف حقوق الرياسة ولا يسمح لاحد غيره بالحديث وقص النكات الباردة ...

ولهذه الأسباب مجتمعة لم تجد المناظرة عناما شديدا في اقناعي بالزواج فقد كانت العروس المنتظرة فضلا عن شبابها وجمالها الفان تملك منزلا كبيرا يحتوى على سبعة شقق واسعة وثلاث دكاكين وجراج كبير . . ولم أكن أنا أقل غن المناظرة حماسا لاتمام الزواج ، فقد هفت نفس الى

ألتحرر من قيود الوظيفة إلى الأبد، والآنصراف إلى معالجة أطرافى التى كان
الروماتزم لا يكف عن مداعبتها بمزاحه الثقيل، وغمرنى فيض لذيذ من
السعادة وأنا أحلم بالمستقبل الباسم الذى ينتظرنى بين أملاك زوجتى المنتظرة
وأحضانها الدافئة ...

وتمت اجراءات الزواج فى وقت قصير، فى هدوء وبغير ضوضاء وبدون
أن يحدث بين الطرفين أى مشادات أو خلافات كما هو مألوف فى مثل هذه
الاحوال، ووجدت نفسى فى آخر الأمر اجلس فى الكوشة إلى جوار
زوجتى الحسنة وأنا لا أستطيع منع نفسى من اختلاص النظر إلى ثدييها البارزين
إلى الامام فى اغراء شديد، أحاول أن اكون فكرة عن جمال وجهها الساحر
الذى كان يغطيه ذلك النقاب الكشيف الذى اسدلته على وجهها والذى كانت
تقاليد عائلة زوجتى المحافظة تقضى بعدم رفعه الا بعد أن تنفرد ببعضنا
بعد انتهاء مراسيم الزواج ...

وشعرت ليلتها وأنا جالس أتمقبل التهانى ونظرات الإعجاب والحسد
من الجميع بالفرح يغمرنى وبالعرق البارد يبال جسدى فى نفس الوقت وأنا
اتحسس فروة الشعر الأسود اللامع التى كنت قد وضعتها فوق رأسى لتعجب
صاغى وتضفى على هيئتى مظهر الشباب ..

وزاد فى اضطرابى واحسامى بخسنى وبفداحة ما أقدمت عليه من الغش
والخداع تلك النظرات المختلصة التى كانت زوجتى لا تكف عن ارسالها
لبنى شعرى اللامع المصقول، وأخذت أكيل فى سرى اللعنات لهذا الصديق
الخبث الذى أشار على بهذه الفكرة، وشعرت وأنا اتلقى عبارات المديح
والاظراء من أقارب زوجتى بتفاهة شأنى ووضاعة أصلى لأننى سمحت لنفسى
بالاقدام على خداع هؤلاء النجوم الطيبين ..

وأخيراً حانت الساعة الرهيبة ، ووجدت نفسي أسير بين رقص الموالم
ودقات الدفوف ، ورعد الزغاريد إلى حجرة زوجتي ..

وعندما دخلت إلى الحجرة نهضت زوجتي راغبة لاستقبالى وهى تفرك
يديها فى خجل شديد فاقربت منها وعلى شفتى ابتسامه هادئه وأنا أحدثها
فى لطف وحنان لا هدىء من أعصابها الشائرة حتى تطمئن الى ، ثم مدت
يدى برقة أريد رفع نقابها الكثيف لامتع عيني بمنظر وجهها الساحر ،
ولسكنها أفلتت منى بحركة رشيقه وتحركت فى خفة الغزال واتجهت نحو مقعد
فى ركن معتم من الحجرة وارتمت عليه وأسندت رأسها على يديها ..

ووقفت جامدا فى مكانى اتأمل عروسى المسكينة فى اشفاق ، ثم ارتيمت
على احد المقاعد بعيدا عنها حتى لا أزيد فى رعبها ، فلا ريب ان اعصابها لم
تتحمل فكرة وجودها منفردة لأول مرة مع رجل غريب فى حجرة
واحدة ...

وطال بنا الوقت ونحن جالسين مبتعدين من بعض نتبادل الحديث ،
وقد خيل الى انى قد انتقلت الى نعيم مقيم ، واخذت أنصت الى نغمات
صوت زوجتى الساحر الذى كان ينبعث من الركن المعتم فى اذنة وشغف
وأنا أحسد نفسي على كل هذا الهناء وأبارك فى سرى الخاطبة الطيبة القلب
التي أهدتنى هذا الملاك ..

ومع مرور الوقت رأيت أن انتهر الفرصة واستغل قلة خبرة زوجتى
وسذاحتها التي تكشفت لى من حديثها للخروج من ورطتى التي أوقعنى
فيها ذلك الصديق اللئيم فاستجمعت شجاعتي وقلت لها فى تردد

- هل تسمحين لى يا حبيبتي باعتراف صغير ؟

وانبعث صوتها الساحر من الركن المظلم وهى تقول فى تشجيع

— تفضل ...

وغرق سجينى فى فيض من العرق البارد ، ولكنى رايت ان انتهز الفرصة
السانحة واعترف لها بنفسى قبل أن تكشف هى الأمر ، فقلت بسرعة كما
لو كنت اخشى ان تخوننى الكلمات

— إبنى .. اننى اضع على راسى شعراً مستعاراً و ...

ونسكت راسى فى خجل ولم يسعفى لسانى باتمام جماتى ، ولكنى اضطرت
لأن ارفعها بسرعة مرة ثانية عندما انبعث من الركن المظلم الذى التجأت
اليه زوجتى صوت ضحكة طويلة هازئه ..

وشهرت فى هذه اللحظة أكثر من اى وقت آخر بمقدار حماقتى
حين اقدمت على هذا العمل الأخرق وتأكدت من اننى قد سقطت من عين
زوجتى ، وفقدت احترامها الى الابد ، واخذت اراقبها وهى تنلوى فى مكانها من
الضحك ، وانا لاملك نفسى من العجب من هذا التغير المفاجئ الذى احدثه
اعترافى فيها ...

وأخيرا قالت زوجتى بدلال وهى تقترب من ناحيتى بخطوات رشيدة
- يا شيخ قول كده من الصبح خاينى أقلع طقم أسنانى ..

تفوهت زوجتى بهذه الكلمات وهى تاقى بنفسها على المقعد المقابل
لى وتضجع عليه بترائح ، ثم مدت يدها ورفعت فى قلة اكتراث نقابها
الكثيف عن وجهها وهى تنظر لى فى تحد واستهتار ..

وأخذت أحرق فى زوجتى بنظرات بلهاء وأنا أكاد اصعق من الدهشة
وجسدى يتفرض من الرعب والاشمزاز من بشاعة الوجه الذى طالعى
من خلف نقابها ..

في هذه الليلة فقط خيل لي أنني أحب زوجتي أكثر من أي شيء في العالم
فقد ظهرت لي رغم دماستها وانفهامها الكبير الذي يهزأ بأنفت المرحوم سيرانودي
برجراك الشهير وجلد وجهها المتسكرمش الذي يوحى بعدد من السنين تفوق
عدد سنين عمري المديد فقد ظهرت له رغم كل هذا أنها خفيفة الروح طليقة
اللسان خبيرة الحياة كثيرا وكان هذا هو في الواقع الصنف الوحيد
من النساء الذي كنت أحلم به فهو أقدر على فهم الرجال من أولئك الشابات
الطائشات

أخذت أعزى نفسي بهذه الأفكار وأنا جالس أحرق في وجه زوجتي
بإشمتزاز وأراقبها وهي تمد يدها تحت وسادة المقعد الذي تجلس عليه
وتخرج عابرة من لفائف التبغ ، انتقلت منها واحدة والقت إلى بأخرى ثم
أضجعت في مقعدها وبعد أن أشعلت لفافتها والقت إلى بعلمبة الثناب ، أخذت
تشد أنفاس لفافتها في قوة وتلذذ كبير ...

وأشعلت أنا الآخر لفافتي وأخذت أدخن في عصبية وأنا أحاول طرد
الأفكار الشريرة التي ابتدأت تغزو رأسي في هذه اللحظة في أغراء شديد ثم مددت
يدي وخلعت نظارتي حتى لا أرى الهوة المظلمة التي كانت تظهر في وجه زوجتي
كلما همت بالحديث ، ولكنني وجدت نفسي مضطرا إلى تشبيتها مرة أخرى
على عيني عندما خيل لي أنني أرى شبح يد زوجتي وهي تخرج من صدرها
أجساما ملتوية على هيئة الأفاعي ..

وأخذت أنقل بصري في دهشة شديدة بين يدي زوجتي البارزتين وهما
ينخفضان بالتدريج مثل عجلة المطاط حين تفرغ من الهواء ، وبين كومة
من ضفائر القماش الملقوفة في عناية التي أخرجتها من صدرها
ووضعتها أمامها فوق المنضدة المنخفضة التي تفصل بيننا والتي كانت منذ لحظة

قصيرة أضيفي على ثدييها إغراءا يسيل له اللعاب ...

واضطجعت زوجتي مرة أخرى على مقعدها وهي تتمهد في إرتياح
وتنظر إلى نظرة حافلة بالمعاني ، ثم جلست تراقبني في صبر تافه ، ففهمت
ماذا تعني ومددت يدي بدوري إلى فمي وخلعت أسناني الصناعية ثم نهضت
إلى ركن الحجرة وأحضرت لفافة كبيرة من القماش رجعت بها وجلست
على المقعد وأخذت الف جسد في الأحزمة الصوفية الثقيلة التي أستعين بها
على محاربة الروماتزم ، وأنا أتبادل النظرات مع زوجتي في تفاهم وقد غمرنا
نحن الإثنين شعور من السعادة والهناء ...

وبت ليلتها وأنا أحلم بالمستقبل الباسم الذي ينتظرني وأمنى نفسي
بشيء حوخي هادئة أمضيها بين أملاك زوجتي وقد ارتفعت قيمتي في نظري
بعد ما تبين لي حقيقة زوجتي ، وتبدد من نفسي كل شعور فيها بالقلق
من المستقبل ...

ولكن الأيام القليلة التي تلت ليلة الزواج حطمت في قسوة كل هذه
الأوهام التي كانت تملأني ، وتكشفت لعيني منذ صباح اليوم الأول لليلة
الزفاف حقائق بددت كل ما كنت أتشبه به من الأمان والأحلام وعرفت
أن المنزل الذي قيل لي أن زوجتي تملكه ليس خاصا بها وحدها وإنما
يشاركها فيه ، كل أفراد عائلتها الكريمة التي يزيد عدد أفرادها عن الثلاثين
شخصا ، وأن المنزل الكبير لا يدر إيجارا لأن أفراد العائلة الكبيرة يحتلون
كل شبر فيه وأن كل هذا الجdish العرم رم يعيش على الجنيحات القليلة التي
يديرها إيجار الدكاكين الثلاثة والجراج ...

كانت هذه المعلومات صدمة حقيقية لي ، لا تقاس بمقدار ما صدمت به
عندما اكتشفت دمامة وجه زوجتي العجوز ، وتملكتي بعد أن عرفت كل

هذه الحقائق المريرة رغبة عنيفة في الانطلاق والبحث عن هذه الخاطبة
الجهنمية التي أوقعني في هذا الشرك الخيف ، واستخلاص روحها الخبيثة
من بين جسدها ، واسكني لم أستطع التحرك من مكانى لأننى شعرت
بالروماتزم يتفاعل مع دمائى الشائرة من الحنق وخيبة الأمل ويشانى
عن الحركة ...

ولم يكن هناك حد لثورة زوجتى وأقاربها عندما عرفوا بأننى كنت قد
استقلت من وظيفتى فى الحكومة بعد أن أخرجت لسانى لرئيسى الجديد
وقلت له رأى فيه بصراحة ، وذلك قبل الزواج ببضعة أيام ، فقد كانوا
جميعا يبنون كبار الآمال ويحسبون بدقة كل وسائل الترفيه التى
يمكن لمرتبى المحدود أن يكفلها لهم ، وانقلب المنزل بعد ذلك الى ميدان
صاخب لمحارك لا تنتهى بينى وبين زوجتى الفاضلة وحماتى العزيزة وأقاربها
الساخطين ...

وغدت حياتى بعد ذلك جحima لا يطاق ، وأخذ كل أفراد عائلة زوجتى
الكريمة ينظرون الى كاداة اللحم وأشباع رغبة العنطرة المتعطشة اليها نفوسهم
وأصبحوا يبادروننى بالسباب واللعنات لالشيء الا للترفيه عن مشاعرهم الغاضبة
لأننى خيبت آمالهم وحرمتهم من التمتع بمزيجى ، وكانت الأوامر الصارمة تنهال
على من كل الأفواه ، كل منهم يرسم لى كيفية معيشتى ويتحكم فى تصرفاتى بالوجه
الذى يرضيه ، الأمر الذى جعلنى فى حيرة دائمة وتفكير مستمر للبحث
عن طريقة أستطيع بها أن أوفق بين كل هذه الأوامر المتعارضة فى وقت
واحد ...

وأخذ الاضطهاد الذى أتعرض له يزداد يوما بعد يوم ، وابتدأ الجميع
يحدون لذة كبيرة فى تعذيبى ويتفننون فى ابتكار الوسائل التى تجعلنى مدفا

لنضحكهم وسخرتهم، حتى أطفال العائلة لم يجدوا بأساً في المشاركة في هذا
المهرجان وصاروا يتخذون منى هدفاً لنبالهم، حتى غدت حيايتي مثل
كابوس مخيف يرعب على صدرى طول الوقت وتمنيت الافلات من هذا
المنزل الجهنمي بأى ثمن ...

واكن أين المهرب .. وقد سدت أمامي جميع المنافذ ؟ ولست أملك
شيئاً أستطيع الاعتماد عليه في تغطية نفقاتي بعد أن استقلت من عملي وبعت
كل أثاث مسكني القديم قبل أن أنتقل الى منزل الزوجية السعيد، وأصبحت
بغير مأوى، بالإضافة الى ما أعانيه من ذلك الروماتزم اللعين الذي ابتدأ
هو الآخر ينتهز فرصة ضعفى وأخذ يهرأ أعضائى ويمنعنى من التحرك
بسهولة ...

ولما كنت واحداً من أولئك الأشخاص الذين لا يتخذون قراراً
هاماً الا بعد طول الروية والتفكير ، فأننى قد قررت بينى وبين نفسى على
ترويضها على احتمال كل هذا العذاب بصبر وبدون تذمر ، مع مواصلة
البحث سرافى نفس الوقت عن طريقة أستطيع بها الفكاك من هذا المنزل
المريع ...

وأجهدنى التفكير وأعيانى طول البحث ولكنى لم أياس وكان يكفينى
كلما شعرت بالوهن يذب الى جسدى أو الضعف يتسالى الى أعضائى أن
أرفع عينى لأملأها من وجهه زوجتى القبيح لكي اندفع الى الطرقات
أزرعها بحثاً عن أى عمل وقد غلت الدماء عروقى ونسيت تماماً آلام
الروماتزم وامتلات بطاقات هائلة من الحمية والنشاط ...

وفى ذات مساء وكان ذلك فى أول أيام عيد الفطر الماضى ، وأنا جالس
بمفردى فى المنزل أنعم بوحدى ، اذ كان جميع أفراد العائلة قد ذهبوا منذ

الصباح الباكر لتفضية أيام العيد في مقابر العائلة الكائنة في أرض الفقير
بالعباسية لتوزيع الصدقات على أرواح موتاهم الطاهرة واستذكار ما قد
يكونون قد نسوه من سيئاتهم وشروهم ..

في هذا المساء هبطت على فيما يشبه الوحي فكرة هائلة فتحت أمامي
أبواب الأمل على مصراعها ووجدت فيها طريقا سهلا للخلاص من هذا
الجهنم ، وعجبت كيف لم أفطن إلى مثل هذه الفكرة الرائعة من قبل ..

كان ذلك وأنا جالس منهمك في قراءة العدد الأخير من « روايات
الصاروخ » الشهيرة الذي كنت قد استعرتة في اليوم السابق من الأسطى
عبد الحميد حلاق الحى الصحى ، عندما وجدت بين صفحات العدد إعلان عن
مسابقة قصصية تقيمها دار الصاروخ ، للقراء وحددت فيها للقصة الفائزة
جائزة مالية تسيل اللعاب مكونة من ثلاثة أرقام ...

وبعد أن فرغت من قراءة القصة ، طويتها وأمسكتها في يدي وأخذت
أعيت بها بين أصابعي وأنا أشارد الفكر وكلمات المسابقة تحتل ذهني طيلة
الوقت ...

ولجأة تفتق ذهني عن هذه الفكرة الرائعة وقلت ... ماذا لو اشتركت في هذه
المسابقة القصصية وأنا صاحب خيال واسع وعندي كل المؤهلات التي
تجعل منى كاتباً عظيماً ؟

ولم أتردد في تنفيذ هذه الفكرة وإخراجها إلى حيز الوجود ، فنهضت
من مكاني وذهبت أحجل في إرجاء المنزل بحشا عن قلم وورق حتى عثرت
على بغيتي فرجعت إلى حجرتي ووضعت الجميع أمامي على المنضدة الصغيرة
وجالست لا أكتب ، ولكن عندما أمسكت بالقلم جابهتني مشكلة لم أحسب لها
حساباً من قبل ، وتساءلت ماذا أكتب ؟

وظللت جامدا في مكانى مدة طويلة وقد سرح بنى الخيال ورأيت
نفسى أفوز بالجائزة الأولى وأسارع إلى افتتاح محل تجارى يدر على من
الأرباح ما يكفى لسداد نفقات معيشتى ويجعلنى غير مضطر إلى العيش مع
زوجتى وأقاربها الأبالسة كما رأيت أيضا صورتى وهى تنشر فى جميع
الصحف والمجلات و ...

وألهبتنى فكرة الفوز بالجائزة الأولى وتطليق زوجتى إلى الأبد والجللاء
عن هذا المنزل السكريبه ، فأخذت أفدح ذهنى بحثا عن فكره تصلح لأن
تسكون موضوعا لقصة جميلة ، وظللت زمنا طويلا أحرق فى سقف
الحجرة بنظرات متفلسفة كما يفعل الكتاب العظام ، وانتظرت فى صبر حتى
هبط على الإلهام فى آخر الأمر فأمسكت بالقلم وانحنيت لأكتب ...

ومرت ساعات طويلة وأنا عاكف على الورق والهدوء يسود المكان
من حولى ولا يسمع غير صوت صرير قلمي وهو يجرى فى سرعة على الورق
وعندما انتهيت أخيرا من الكتابة القيت بالقلم من يدي فى ارتياح واضجمعت
على مقعدى وأمسكت بالأوراق المحتوية على القصة التى كتبتها وأخذت فى
قراءتها ...

كانت حوادث القصة التى كتبتها تدور حول صراع الأزواج والخوات
وقد ساعدتنى ظروف معيشتى على سهولة كتابتها وإخراجها فى إطار مثير ،
وقد رأيت أمعانا فى حبكة القصة أن أزودها ببعض الآيات الشعرية
والحكم المشهورة وبعض الأمثال العامية والأفريقية وبعض الطرائف
الجفسيية المشيرة ، ولم أنس أن أسوق على لسان بطل القصة بعض البطل
الجناسية كالتى تعودان يستعممان الساسة القدماء التى يمكن أن تنتزع التصفيق من
الأيادى وصيحات الإعجاب من الحناجر ، كما رأيت أيضا زيادة فى السخام

أن أحاطهم سطور القصة ببعض الكلمات والعبارات الفصيحة والجميل
المتقاة مثل أن البطل بعد أن اشترى « القميقة » وضعه في « القاووق » ،
وغير ذلك من الكلمات التي هي درة البيان ودليل فصاحة اللسان ،
وزعتها على سطور القصة اعتباطا وكيفما اتفق لأزيد من بلاغتها وروعة
أسلوبها ..

أما معنى هذه الكلمات ، ومن يكون هذا القميقة ، وذاك القاووق ، فهذا
كان آخر شيء كنت أعرفه ، وإنما هي مجرد كلمات كانت قد علقت في ذهني من
كتاب قديم كنت قد قرأته منذ سنوات اسمه « المسامير في علم الصراصير »
تأليف كاتب فطاحل ، وأشك في أن مؤلف هذا الكتاب نفسه يعرف معناها ،
وأغلب ظني أنه كان قد اقتبسها من كتاب لمؤلف أقدم منه ...

وقد حرصت على حشو سطور قصتي بهذه الكلمات لحكمة عميقة ، لأنني
أعرف بثاقب فكري وصدق فراستي أن القاريء يحاول دائما أن يغطي
جهله بمعنى هذه الكلمات بالأعراب عن إعجابه بجمال القصة وروعة أسلوبها
ورغم أنه لم يفهم منها حرفا واحدا .. وأنا لأزلت أذكر حتى هذه اللحظة
ذلك الاحساس بضآلتي وتفاهة ثقافتني الذي كان يزداد في نفسي كلما
استطردت في قراءة كتاب « المسامير في علم الصراصير » وكيف
خييل لي أن كاتب هذا الكتاب القيم لا يرمي من وراء كتابه إلى
شيء بقدر ما يريد أن يشعر القاريء بتفاهة شأنه وحقارته بالنسبة
إليه ، وقد نجح في ذلك أيما نجاح ، لأنني بعد أن فرغت من قراءة هذا
الكتاب وطويته ، أخذت أتأمله مدة طويلة وأنا مبهور بالأنفاس وقد فاقت
نفسي إعجابا بمن عبقرية مؤلفه ... رغم أنني لم أكن قد فهمت منه كلمة واحدة ...

وبعد أن فرغت من قراءة القصة التي كتبتها ووضعتها أمامي على المنضدة

فى حرص وأخذت أفرقع أصابعى فى كسل وقصد غمرنى السرور وعلت
شفتى ابتسامة انتصار وأنا أتأمل بفخر الأوراق المحتوية على عصاره ذهني
ونجاح عميرتي ، ولم يخالجنى أى شك فى الفوز بالجائزة الأولى إذ كنت
أعرف ان .. الكلام الفارغ شديد الرواج فى هذه الأيام ..

وأفقت من افكارى على أصوات صفير سعاد ترتفع من شتى الاتجاهات
من حولي ، فارسلت بصري عبر النافذة ورأيت ناظر محطة الترام يتفقد على
الرصيف وفى فمه صفارة ضخمة ينفخ فيها باستمرار ومن حوله عدد كبير
من الكسارية يتبارون فى هذا العمل حتى امتلأ الجو بأصوات صفيرهم
المزعج ، وبعد لحظة فهمت السر فى كل هذا الصفير عندما تحركت بى عربة
الترام التى كانت قد إمتلات لآخرها بالركاب والروائح النتنة ولم يبق فيها
موضعاً لتقدم ...

كنت فى هذه اللحظة فى طريقى الى «دار الصاروخ» لاسلم قصتي الى صاحب
الدار يدا بيد خوفاً من ضياعها فى البريد ، ولا متع نفسي بنظرات الاعجاب
والحسد التى سوف يتأملنى بها ولا شك موظفى الدار عندما تقع اعينهم على
سطور قصتي القريضة فى نوعها ، كما انى رأيت أن هذه هى أحسن المناسبات
التي أستطيع فيها أن أحقق حلماً قديماً لى بزيارة هذه الدار العظيمة ...

وعندما وصلت إلى « دار الصاروخ » وقفت لحظة على مبعده أحديق
فى رهبة فى المبنى الشامخ المنتصب أمامى فى كبرياء ، ثم استجمعت
شجاعتي وتقدمت من البواب وسألته باحترام عن صاحب « روايات
الصاروخ » فتطلع إلى هذا باحتقار وأشار إلى سلم حديدى ضيق فى خلف
المبنى الكبير ولم يتفوه بكلمة واحدة ، وعندما وجدنى لم أتحرك من مكانى
انى بحركة كأنه يهم بركلى بحذائه فسارعت فى الابتعاد عنه واتجهت صوب

السلم الحديدى الدائر وأخذت ارتقيه فى صعوبة وأنا احنى رأسى حتى لا
يصطدم بالعارضات الحديدية المنخفضة التى تكون درجاته العلوية
وظللت أدور مع درجات السلم وأنا الهث بشدة حتى سكنت أسقط
من الأعياء ...

وأخيرا وصلت الى نهاية السلم ، فوقفت لحظة لاستجمع قواى وأسترد
أنفاسى المتلاحقة وقد تسبب جسدى عرقا، وأدريت بصرى فيما حولى فوجدت
اننى قد وصلت فى صعودى إلى سطح المبنى فسكنت أهم بالنزول راجعا من
حيث أتيت وأنا اعتقد أننى قد اخطأت الطريق، لولا أن لفت نظرى لافتة
خشبية معلقة فوق إحدى الحجرات فى آخر السطح مكتوب عليها
بحروف بالهنة « دار الصاروخ » فاستجملت شجاعى واصلحت من هندامى
واتجهت نحو الحجرة المعلق فوقها اللافتة وأنا أعجب فى سرى من عبقرية
صاحب « دار الصاروخ » الذى اختار مثل هذا المكان البعيد عن الأعين
المتطفلة مقرا لنشاطه حرصا على أسرار المهنة ..

وتقدمت من الباب المفتوح فى قلب واجف وأرسلت نظرة مختلصة إلى
داخل الحجرة فلم المح فيها أحدا ، ووقع بصرى على كومات هائلة من المجلات
والصحف القديمة يكسوها التراب مبعثرة فى كل مكان فى الحجرة
بغير انتظام ...

ووقفت حائرا فى مكانى لأدري ماذا أفعل ، وعندما أوشكت أن استدير
راجعا لمحت شماعة صغيرة الدلائس معلقة على كومة مرتفعة من المجلات
والصحف تالت منها بذلة كاملة مغطاة بقميص متسخ لمحت إلى جوارها بابا
صغيرا يفضى إلى حجرة داخلية لم افطن اليها من قبل ، فتشجعت وهتفت فى صوت
عال استمددت عجزته من قدارة المسكان ...

— الا يوجد أحد هنا ؟

وسمعت على التو حركة سريعة فتبعته من الداخل ، ورأيت يدا ضخمة مكسوة بشعر غزير تمتد في اضطراب وتتساول شاة الملابس ، ثم وصل الى سمعى صوت رفيع أشبه بأصوات النساء يقول من الداخل ..

— ماذا تريد ؟

— أريد مقابلة صاحب « دار الصاروخ »

— أنا صاحب الدار .. أرجوك الانتظار دقيقة واحدة ...

ووقفت فى مكانى انصت الى حركات الرجل السريعة وهو يرتدى ملابس فى الحجرة الداخلية وقد استولت على حيرة ودهشه شديدة لما ارى ... و ...

ولجأة استدرت فى مكانى وأخذت أعدو فى سرعة كبيرة صوب الدرج الحديدى وأهبط درجاته قفزا وأنا أعرض على شفتى فى حنق وغيظ عندما تذكرت اننى فى غمرة أفكارى .. قد نسيت المظروف المحتوى على القصة فى عربة الترام ..



سوف تضحك في كل سطر . . .
وتبكي في السطر الذي يليه . . .
وتنسى نفسك وأنت تقرأ . . .

البؤساء

مجهود خمسة أعوام كاملة من العمل المتواصل

بقلم الأستاذ

مصطفى كمال حمدي

... أمهاتهم رويدا...

وأطل أحد الفلاسفة من نافذة حجرته ... وإبتسم في
سخرية وهو يرقب طراير جنود الإنجليز وهي تتدفق بكثرة
إلى الشوارع ، ثم هز رأسه مشفقاً وقال محدثاً نفسه ...

— يا لهم من حمقى ... إنهم يظنون أنهم قادرون بالحديد
والنار على خنق ينابيع الحرية التي تفجرت في القلوب ، ولكنهم ...
ولا شك ... سيعرفون مقدار خطئهم عندما تتفجر عما قريب
السيول المختزنة في الصدور وتكتسح في طريقها كل شيء ...

تطل الشمس من عليائها بكبرياء على العالم منذ ملايين السنين وهي ثابتة في مكانها تاركة الأرض تدور من تحتها دوراتها اللانهائية لتسمح لكل جزء منها بأخذ نصيبه من أشعتها الدافئة .

وفي أبراج الشمس الملتهبة انكب عدد هائل من الكتبة على سجلات ضخمة وإنحنوا وفي أيديهم أقلام طويلة يدونون الأحداث التي تجري من تحتهم ، وكانت هذه الأبراج تختلف في الضخامة والارتفاع تبعاً للجزء المكلفة بمراقبته من سطح الأرض ، وكان عدد الكتبة المنوط بهم تدوين الحوادث في كل جزء منها يزداد ويقل وفقاً للأحداث الهامة التي تجري على سطحه ..

وفي مكان بارز من الشمس ارتفع البرج المخصص لأراضي الفراعنة، ضخماً هائل الاتساع تلوح عليه آثار القدم ويطل من جنباته عدد السنين الطويلة التي أمضاها قائماً في مكانه يشمخ بأبراجه المرتفعة على الأبراج الأخرى المخصصة لباقي أجزاء الأرض المختلفة ، وملاحق بهذا البرج مخزن واسع الأرجاء يكاد الأنسان يفقد طريقة لخلاط طرقاته الطويلة ورداته الواسعة ، وفي كل مكان منه تكلمت ملايين من السجلات الضخمة وقد علاها الغراب ونسج العنكبوت عليها خيوطاً كثيفة من الفسيان ...

وكان المراقبون عادة يجحدون عناء شديداً كلما أرادوا استدكار تاريخ هذه البلاد الخافل ، ويحصر عدد الأحداث الدموية الهامة التي أثرت في مجرى تاريخها الطويل ، ويقدر أنهم في حاجة إلى عشرات الأعوام قبل أن ينتهوا

من تصفح كل هذا العدد الهائل من السجلات التاريخية، وعرف كسبة التاريخ
حيرة المراجعين وصعوبة المهمة الملقاة على عاتقهم فاتفقوا فيما بينهم على
تسهيل مهمتهم، وصاروا يدونون الأحداث الهامة بحبر أحمر له بريق خاص
يميز السجلات المدونة فيها أهم هذه الأحداث عن غيرها ...

ويخطف بصر الداخل إلى هذا الأرشيف التاريخي الهائل عشرات الآلاف
من الأضواء التي تشع من كل مكان، ويلفت نظره بنوع خاص سجل ضخم
ترسل صفحاته بريقا باون الدماء يكاد يعمى الأبصار، فيجد نفسه
ينجذب إليه رغما عنه ولا يملك غير أن يمضي ويتناول له ويضعه فوق إحدى
المناضد الطويلة المخصصة للمطالعة، وعندما يبتدئ في تقليب أول صفحاته
تطالعه هذه الكلمات مكتوبة بحروف غليظة قاتمة اللون ...

الخميس ٣ أبريل سنة ١٩١٩ .

ولا يكاد المرء يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتى يجد أنظاره تتسلل
بدون أن يشعر إلى بيان الأحداث الدموية التي سجلها كسبة التاريخ في ذلك
اليوم فيجثث في جليسته ويبتدئ في القراءة ...

أشرقت الشمس صباح هذا اليوم وجلس كسبة التاريخ في أماكنهم
وهم يتوقعون أحداثا هائلة وأمسكوا بأقلامهم في انتباه حتى لا يفوتهم
أى شيء ...

كانت الأرض تغلي من تحتهم، وال جماهير الثائرة تهزول من كل صوب
وتتدفق في جموع حاشدة صوب ميدان عابدين وهتافتها تشق
عنان السماء ...

ومن كل مكان ارتفعت الأصوات صاخبة لاعنة مطالبة بالغاء
الحماية والإفراج عن الزعماء المعتقلين، ومن كل صدر تفجرت نيران

الخيطة المختومة على طول السنين وجرفت الجميع في طريقها فاندفعوا إلى
الطرق كالوحوش الهائجة...

وأقفلت المدارس في جميع أنحاء البلاد وخيم الهدوء على دواوين
الحكومة بعد أن خلت من موظفيها، وانتهرت الجرذان الضخمة هذه
الفرصة وخربت من جحورها وأخذت تقفز بين المكاتب في مرح
واطمانان وتقضم أطراف أكوام الأوراق الضخمة المرصوفة فوق
مكاتب الموظفين في تلذذ كبير...

وساد الهدوء حتى باب الشعرية وتحت الربع والمغربلين وشبرا ومصر
القديمة، وفي جميع أطراف القاهرة، وخلت جميعها من الرجال بعد أن
هجركل فرد عمله وإنضم إلى ذلك السيل البشرى المتدفق إلى
ميدان عابدين...

وفي حجرة فخمة في ثكنات قصر النيل أخذ فخامة السرداد مند
أ. ه. ه. النبي نائب جلالة الملك... الخاص في مصر والسودان والذي
في يديه السلطة المطلقة في جميع الأمور العسكرية والملكية والمندوب
السامي فوق العادة و... و... يذرع الحجرة الواسعة جثة وذهابا في
خطوات قلقة ثم وقف وتحول إلى عدد كبير من الضباط كما نوا جالسين
يراقبونه في برود وصاح بهم

- لا بد من معالجة الأمر بشدة وحزم حتى لا يعود هؤلاء الرعا
إلى مثل هذا الشغب مرة أخرى.

وهز الضباط رؤوسهم مؤمنين...
وفي الجناح المقابل لحجرة فخامة الجنرال جلس المعلم أبو الذهب

أمام سعادة «السكا بن بلاك» وهو يفتل شاربه الغليظ وعيناه تتبعان في جمشع
يدا السكا بن وهما تعبان بحزمة كبيرة من الأوراق المالية . . ولم يطلق
المعلم أبو الذهب صبراً ومد يده واختطف الحزمة من يد السكا بن الذي
انقسم له في رقة وقال .

.. يجب أن تستأجر أكبر عدد من المشاغبين وتوزعهم على كل حي ،
حتى يتم تحطيم أكثر عدد ممكن من المحلات العامة .

وانفرجت شفقا المعلم أبو الذهب الغليظتان ولمح بريق أسنانه الذهبية
وقال وهو يوزع الأوراق المالية على جيوبه الواسعة

- كن مطمئناً يا فخامة السكا بن . . فأنت تعرف أن هذه ليست أول
مرة أقوم لكم فيها بمثل هذا العمل ...

وتهالك «السكا بن بلاك» على مقعده المريح بعد أن غادر المعلم أبو الذهب
الحجرة وأغلق الباب وراءه، وقد اختفت عن وجهه البشاشة واللطف التي
كانت تملأه قبل أن يخرج هذا الأخير وعلمته القسوة الممزوجة
بالاحتقار ...

ونمض «السر جنت ماجور فوكس» عندما لمح المعلم أبو الذهب
يغادر حجرة «السكا بن بلاك» من مقعدة وتقدم إليه وعلى شفقيه
ابتسامة عريضة فدنا يده إلى جيبه ودس في يد «السر جنت ماجور»
عمولته المعتادة ...

وفي الجانب الشمالي من ثكنات قصر النيل جالس «الكوبرال جارفيس»
على فراشه المنخفض وهو يعبت في يده بخطاب وصله اليوم من زوجته
تزنف لآله فيه بشرى وضعها مولودا جميلا رغم أنه لم يرها منذ عام
ونصف وتطلب رأييه بخصوص تسمية الطفل . . . وأخذ يهرش في رأسه

في حيرة وهو يفكر بعمق في هذه المشكلة ويفتش في ذهنه بحثاً عن ... اسم
مناسب للطفل ...

وفي عابدين كان الميدان قد غص على سمته بالبشر وسدت جميع
الطرق المؤدية إليه بجموع حاشدة من مختلف الطبقات وامتلاء
الجو فوقها بهدير خفيف يخيل إلى الناظر إليهم كأنه في يوم الحشر .
وظهر في هذه اللحظة أحد الانجليز مرتدياً ملابساً مدنية ومنتظياً صهوة
جواد عربي أصيل ، كان ينقل حوافره بين الجموع الكثيفة المترصة في الميدان
في كبرياء بينما انتصب صاحبه فوق ظهره يتطالع إلى الجموع الملتفة به في
غطاسة وكبرياء ...

ودوت رصاصة من مكان قريب سقطت على أثرها الانجليزى من فوق
حصانه واختفى تحت الأقدام الهاجئة ...

وفي الوجهه القبلى كانت ستة عشر فصيلة من الجنود المدربين على
أمرع أنواع القتل والتخريب تعمل بهمة وبراعة لإخماد الثورات التي
اندلعت في كل مكان ...

وفي جنوب القاهرة أخذ جماعة من العمال الحفاة الأقدام العراة
الأجساد يعملون تحت أشعة الشمس المحرقة وقد تصدبت أجسادهم عرقاً
لإصلاح خطوط السكك الحديدية التي نسفها الثائرون ، وسيطط المراقبين
لأنكف عن الصراخ في الهواء مداعبة أجسادهم النحيلة ...

وفي قرية شوبلت انفاره الغربي قبض على العمدة لأن النار أطلقت
على الجنود الانجليز من منزله ثم فقتت بعد ذلك جميع منازل القرية
وأشعلت فيها النيران وسيق الرجال والنساء تحت فرقة السياط في طوابير

طويلة أخذت تقصر بالتدريج في أثناء الطريق ...

وفي أسبوط كانت الثورة قد بلغت أقصاها ولكن البريجادير جنرال
هدلستون « استطاع ببراعته الفائقة إعادة النظام إلى أرجائها ، وبذل في ذلك
جهوداً جبارة ، ورغم الإرهاق الذي أصابه من هذا الجهد الضخم فإنه
لم يسمح لنفسه بالراحة بل أصدر فوراً أمراً لجنوده بنصب المشانق
في كل مكان ، ووقف يراقبهم وهو يغلى من الغضب ويعلن إدارة
الإمدادات والتأمين الانجليزية لأنفسهم تزوده بعدد كاف من المشانق
واستدعى إليه سكرتيره الخاص وأمره عليه خطاباً شديد اللهجة موجهاً إلى
القيادة العامة في القاهرة طالبا منها اتخاذ الإجراءات السريعة والعمل على
سد هذا النقص المخزى في معداته بأسرع وقت ، وبعد أن فرغ من
الخطاب استدعى إليه أحد الجواسيس المصريين وأوصاه أن يسرع به في
الحال إلى القاهرة .

وفي حارة القرشي بالسيدة زينب أمسك الأسطى أبو شنب صاحب صالون
الخدمات برأس إبراهيم أفندي خليل الموظف في وزارة الحقانية ، يداعيها
بأصابعه .. وهو يقص على أصدقائه المترابين فرق المقاعد المحطمة التي ترحم
الصالون الضيق أخبار الجيران وآخر فضائح ابنة المعلم أحمد بائع الفسيخ ،
وقبل أن يسترسل في حديثه الطلى اندفع إلى الصالون زكى أفندي
الموظف بالداخلية والى اليهم بالأنباء المشيرة في انفعال ، وقبل أن
يكمل كلامه كان الجميع قد غادروا الصالون وأطلقوا سيقانهم للريح في
اتجاه قصر عابدين ، تاركين إبراهيم أفندي جالساً بمفرده في الصالون يتأمل
باعتجاب صاعته اللامعة في المرأة ...

وفي العباسية كان عبد الله أفندي الحلو الموظف بالمساحة خارجاً من

أحد الأبواب الجانبية في ثكنات الجيش الانجليزى وهو يتحسس رزمة كبيرة من الأوراق المالية داخل جيب سترته والتي أخذها منذ لحظات من سعادة « الماجور ستيورات » مكافأة له على تفانيه في خدمة قوات صاحبة الجلالة وذلك بعد أن تم القبض على أفراد إحدى الجمعيات الوطنية . . . وكان عبد الله أفندى الحلو في هذه اللحظة وهو يسير في الطريق بخطوات خفيفة عائدا إلى مسكنه غارقا في أحلامه السعيدة وقد ارتسمت على شفيقه ابتسامة هائلة بعد أن زالت متاعبه وأصبح يملك باقى ثمن ذلك المنزل الذى ينوى شراؤه ، وأحس بشبابه يعود إليه وهو يرى بعين الخيال ابنه نصيف يهيش في راحة ورخاء من إبحار المنزل المنتظر . . . وفجأة عبس بوجهه عندما أخذ يؤنب نفسه على بلادته وعدم قدرته على اكتشاف مزيد من الجمعيات الوطنية ليضعف بهذه المعرفة أثره . . .

وعلى بعد قليل من العباسية وفي حجرة ضيقة بالمحمدى كان المعلم أبو الفتوح الجزار بالمذبح يجلس مع شلته المختارة يجذب أنفاس جوزة معمرة بالحشيش فى انسجام كبير ويدور بها على زملائه فى سخاء . . . عندما دخل عليهم الحاج أبو طاقية صاحب الغرزة ونقل اليهم أنباء الثورة المشتعلة فى كل مكان ، فاسرع الجميع بالخروج من الغرفة الضيقة وتدفقوا إلى الشارع، وتبعهم المعلم أبو الفتوح بعد أن تناول ساطورا ضخما، وأخذ وهو يحرقى وراءهم يقسم فى أنفاس متقطعة بأنه سوف يسلخ جلد كل من يقابله من الجنود الانجليز . . .

وفى الزمالة كان سوسو بك يجلس مع أصدقائه حول مائدة أنيقة يكمنون برتيمة البوكر التى ابتدأت فى مساء اليوم السابق عندما دخل أحد الخدم والقى اليهم بالانباء المثيرة، فسارع الجميع بالقاء أوراق اللعب من

أيديهم وتركوا المائدة وأسرعوا إلى الخارج تاركين الخادم يحدق في شرفه
في أكوام النقود المبعثرة على المنضدة ، وبعد فترة تردد قصيرة مد الخادم
يده وجمع النقود ووضعها في حزام حول بطنه ثم أسرع إلى المطبخ ، وبعد
أن تناول هراوة ضخمة أسرع خلف سوسوك ...

وتوقف عبد الباقي السكناس عن عمله عندما رأى هذا الجمع الاستقراطي
يندفع نحو كوبري أبي العلاء في طريقه إلى ميدان عابدين ، وعندما تمكن
من إيقاف أحدهم وعرف منه الأنباء شرع مكسسته في يده وأخذ يعدو
خلفهم وهو يهتف في حماس ، وعندما وصل الجميع إلى الكوبري اضطروا
إلى الإقلال من سرعتهم وانحسروا وسط الخوع الحاشدة التي كانت تعبر
الكوبري في تلك اللحظة في طريقها إلى عابدين وبعد دقائق كان الهدوء يخيم
على الزمالك مرة أخرى ...

وفي شارع بولاق كان الدكتور لمعي يعتنى بأخذ مرضاه في عيادته
عندما وصل إلى سمعه هدير أصوات الثائرين الزاحفة فأسرع إلى النافذة
وصاح في تمرجيه محجوب عبد القادر يأمره بالذهاب واستطلاع الأخبار ...
وسرعان ما كان الدكتور لمعي والتمرجي محجوب عبد القادر يعدوان
خلف المتظاهرين ...

وفي حي المنيرة جلس عبد الرسول بك على مقعد ضيق يداعب ابنه
الصغير المتربع على ركبتيه ويحاول بثتي الحيل أن يجعله يكف عن الصراخ
بينما ربض ابنه الثاني تحت أقدامه يداعبه بآلة حادة في يده ...

وكان عبد الرسول بك في تلك اللحظة يتملّل في مقعده في ضيق وهو يصم
أذانه عن سماع سباب زوجته المتواصل الذي كان يتدفق من فمها بدون
سبب ، ويلعن في أعماقه هؤلاء الموظفين الذين تسببوا في حرمانه من التمتع

بمقدمه الرئيس في الديوان، وقد تعطشت نفسه إلى رؤية السعاة وهم يتفزون احتراماً من فوق مقاعدهم كلما أهل عليهم بطالته... ولم يملك غير أن يتنهد في أسف عندما أخذ يقارن بين سباب زوجته المتواصل وصراخ أطفاله الثاقب وبين كلمة حضرة الرئيس السحرية التي تعود أن يقابلها بها كل موظف في الديوان...

وفي المقاهي انعقدت الندوات المعتادة وأخذ الجميع يتبادلون التعليقات السياسية وكل فرد منهم يحاول أن يبرز زملائه بمعلوماته الواسعة ويتكلم بالهجة الحبيسة العارفة ببواطن الأمور، ولكن سرعان ما ابتدأ الملل يتسلل اليهم من التحدث في السياسة وتحولوا بحديثهم إلى المواضيع المحببة إلى نفوسهم وأخذوا يتبادلون آخر انباء الفضائح ويتسقطون أخبار الزملاء والمعارف بلادة وشغف واسكنهم لم يتمتعوا طويلاً بحديثهم الطلي لأن أخبار الثورة كانت تسرى إلى كل مكان وتنتشر فيه بسرعة النار في الهشيم، وسرعان ما أفقرت المقاهي من روادها.

وفي كل مكان سار طلبة المدارس وقد تقدم كل مجموعة منهم شخصان أمسك كل منهم بعصاة طويلة يربط بينهما قطعة من القماش خبطت عليها كلمات مختلفة كانت جميعها تعبر عن شعورهم وتنادى بسخطهم على الاستعمار وتشارك الجميع في كراهيتهم للانجليز والاحتلال الانجليزي

وفي شارع ابراهيم باشا سارت موكبة من النساء يرتدين أزياء سوداء محتشمة، وقد تقدمتها فتانان جريئتان تحملان علماً كبيراً لا يختلف عن ذلك الذي يحمله طلبة المدارس، واستمرت الفتاتان تتقدمان بعلمهما في ثبات وجرأة نادرة، وموكبة النساء من خلفهما رغم بنادق الانجليز المصوبة إلى صدورهم...

وفى ثكنات قصر النيل كانت أسلحة الجنود المصطفين فى طوابير طويلة
تلمع تحت أشعة الشمس وهم واقفين يتلقون أوامرهم من «السكاكين بلاك» ،
بينما كان «الكوبرال جارفيس» لا يزال جالساً على حافة فراشه يستعرض
فى ذهنه أسماء زملائه ومعارفه على بعض بينها على اسم جميل لطفل زوجته ،
وأنقذه من حيرته دخول «السر جنت ماجور فوكس» إلى العنبر الذى صرخ فى
الجميع بالاستعداد للقتال ، فقفز «جارفيس» من على فراشه وأخذ يرتدى ملابس
الميدان وقد نسى كل شيء عن زوجته ...

وفى ميدان عابدين كان الهياج قد بلغ أقصاه عندما أخذ الرصاص ينطلق
من كل اتجاه ، ولمح الثوار بعض عربات الانجليز قادمة من بعيد وهى تنفث
من أفواهها نيراناً حامية ، فاندفعوا صوبها وسرعان ما توقفت العربات عن
إطلاق النيران بعدما أطيقت عليها الكتل البشرية الهائلة المتجمعة فى الميدان ...
وبرزت من وراء النوافذ المطلة على ميدان عابدين مقدمة بنادق
قديمة يطل الموت من فوهاتها السوداء وقد انتصب وراء كل منها أحد الثوار
الذين كانوا يطلقون الرصاص كلما ظهر أمامهم أحد الانجليز ، وشاهدوا
وهم فى مخاضهم بعض الجنود يحملون الانجليزى الذى سقط من فوق جواده
منذ لحظات بعد أن أصابته رصاصة من مجهول ، وهمس أحدهم فى انفعال

— انهم يقولون انه مساعد الحاكم

وصاح صوت آخر من داخل الحجرة

— كلا ... انه رئيس تفتيش النفاذ بالسكة الحديد

فقال صوت من بعيد وهو يبصق على الأرض ويروم فى وحشية

— فليذهب إلى الجحيم سواء كان هذا أو ذاك ..

وفى الخارج كان الناس يتساملون أين ذهب حضرة صاحب العظمة

السلطانية ، واندس وسط الجماهير أحد الأشخاص وقال بالهجة الواثق

— أنه ذهب ليحتسكف في قصر البستان من صداع خفيف ألم

بعظمته ... !!

وظهرت في هذه اللحظة طوابير من الجنود الانجليز الشاكية السلاح وهي تتقدم من كل اتجاه نحو ميدان عابدين ، وارتفعت أصوات الثوار في طنين هائل عند رؤيتها وهجموا عليهم بصدورهم العارية ...

وفي هذا الوقت كان المعلم أبو شنب صاحب صالون الخداعة ومن خلفه شلته يحاولون اقتحام سياج الجنود الانجليز لينفذوا الى ميدان عابدين ولكن الطرقات كانت قد اقفلت جميعها من شارع القصر العيني إلى شارع الشيخ ريحان ، والداخلية ، والانشاء ، ووزارة الأوقاف ، وسوق الخضار وباب اللوق ، ولكن المعلم أبو شنب لم ييأس وأشار إلى شلته لكي تتبعه ثم أخذ يعدو وهم وراءه واخترقوا شارع المبتديان إلى السيدة زينب ثم تسالوا من طريق خافي إلى حارة السقاين ومنه إلى ميدان عابدين ، وبدون أدنى تردد ألحقوا بأنفسهم إلى جوف المعركة ...

وفي الجزيرة وقف الأستاذ سعد الدين أبو العينين المحامي فوق مقعد مرتفع وأخذ يخطب في الجموع المحتشدة حوله بصوت جهورى حافل بالسخط مناديا بالثورة داعيا إلى القتال بينما ترك كل شخص عمله ليستمع إلى كلماته النارية ، وعلى مبعدة قليلة من الجمع المحتشد وقف القروى متولى أبو الحج حسين يستمع إلى الخطيب وهو يهز رأسه دلالة على الفهم كلما استطرد الأستاذ في كلامه ويده لا تسكف عن الهرش في انحاء جسده المغطى بالآوساخ وقد بدأ على وجهه تقطعية كبيرة كأنه يفكر في لغز عويص الحل ثم التفت إلى أحد الأفندية بجواره وسأله بسداجة

— ما معنى الاستقلال ؟

وقال الأفندي مجيباً بدون أن يلتفت إليه

— ان الاستقلال هو الحرية ...

فلمعت عينها القروى فى إهتمام وسأل فى بساطة

— وما معنى الحرية ؟

فتطلع إليه الأفندي شذرا وقلب شففتيه ولم يعن بالرد عليه ...

وفى هذه اللحظة كان عبد الله أفندي الحلو يدخل إلى منزله فى حى الفجالة ، وكان وهو يرقى الدرجات المؤدية إلى مسكنه يعجب للهدوء الغير عادى الذى يخيم على المكان ، وعندما فتحت له زوجته الباب ، هم بأن يزجى إليها أنباء الثروة التى هبطت عليه من السماء والتي لم تكلفه غير الهمس فى آذان « الماجورستيوارت » بأسماء بعض الوطنيين ولكنهم توقف عندما لاحظ علامات القلق الظاهرة على وجهها ، وقبل أن ينبس بحرف واحد دفعته زوجته الى الخارج وهى تصرخ به فى انفعال لينذهب ويبحث عن ابنهما نصيف الذى كان قد تسال من المنزل بدون أن تشعر وذهب لينضم إلى الشوار فى ميدان عابدين ...

وفى روض الفرج كان شكرى أفندي عبد الباقى يزرع الغرقة الخارجية فى منزله جيئة وذهابا فى قلق شديد وقد امتلأ منزله بالنساء وهو يستمع إلى تأوهات زوجته وهى تضع له طفله البكر ، عندما دوت فى الشارع أصوات هتاف يصم الآذان فأطل من النافذة يراقب الجموع الشائرة ثم وجد نفسه يندفع ويهبط الدرجات القليلة إلى الشارع ويمر وراءهم وقد نسي كل شيء عن زوجته ...

وفى ميدان الحازندار أخذت المومس حميدة كيفو تتمايل فى مشيتها

في تيه ودلال وتراو بنظاراتها الساحرة في اغرام إلى «السر جنت ستنكي»
المكلف بحراسة المرافق العامة في الميدان حتى اجتذبت أنظاره فأخذ
يتابعها بعينيه وهو يلقى شفتيه في حنين ويقاوم رغباته التي ثارت في
نفسه فجأه ولكنه لم يتمكن من مقاومة هذه الرغبات طويلا فهمس
في أذن «الانيس كوبرال بروس» لكي يحل محله ريثما يعود ثم
نهض وأخذ يتبع المومس حتى غاب الاثنان في درب عبد الخالق
القريب ، وبعد دقائق كانت المعلم أبو سريع فتوة الحى يخرج من درب
عبد الخالق وهو يخفى تحت معطفه الواسع سلاح «السر جنت ستنكي»
في طريقه إلى ميدان عابدين وقد تلوثت ملابسه ببتع كثيرة من السماء ...
ومن نافذة إحدى العمارات الشاهقة في جاردن سیتی أطل سعادة
رمضان بك حلى وأخذ يراقب الثوار الذين يملأون الطرقات وهو يصمم أذانه
عن سماع هتافاتهم المدوية ويعص على شفتيه في حنق وهو يحصى في ذهنه مقدار
الخسائر التي أصابته من وراء هذه الثورة وانقطاع الناس عن أعمالهم
وتننى لو كان معه الآن مدفعا رشاشا يسلطه على هؤلاء الثوار الأودغاد وامتدت
نظراته في أمل ترقب فرقة من الجنود الانجليز قادمة من اتجاه شارع القصر العيني
وهو يرجو أن يتمكن الانجليز من اخمد هذه الثورة قبل شهر يونيه المقبل
حتى يتمكن من السفر إلى أوروبا كعادته كل عام ...

وفي مكان آخر جلس بضعة أفراد حول مائدة أنيقة وفي رؤوسهم
أفكار لا تتضاف في شيء عن تلك التي كانت تملأ رأس سعادة رمضان
بك حلى ، وهم يقبلون الرأي فيما بينهم ويقدمون أذهانهم بحفا من
بعض الحيل التي يمكن أن تنطلى على الثوار وتهدىء من حماسهم وتجعلهم
يعودون إلى أعمالهم مرة أخرى وينسون كل شيء عن رفع الحماية الانجليزية
واطلاق سراح الزعماء ...

وفي هذا الوقت كان «الليفتنانت إسكمانك» يطوف على رأس فصيلة من الجنود في شارع بولاق ، ووقعت أنظاره وهو منتصب فوق صهوة جواده على المعلم أبو الذهب ورجال عصابته وهم يحطمون المناجر الكبيرة وينهبون محتوياتها فأمر جنوده بمحاصرتهم والقاء القبض عليهم جميعا ...

وحاول المعلم أبو الذهب أن يبتسم في وجه «الليفتنانت إسكمانك» ويفهمه بأنهم مكافون بأداء هذا العمل من «السكاكين بلاك» ولكن «الليفتنانت» لم يستمع إليه وأمر رجاله بإلقائه مع عصابته في عربة تحمله إلى السجن الحربي واستمدار ليركب حصانه ، ولما حاول المعلم أبو الذهب أن يتبعه ركبه بحذائه ركلة عنيفة أرسلته يتدحرج ساقطاً على الأرض ..

ونهب المعلم أبو الذهب من سقطة وأخذ ينظر بذهول إلى فوهات البنادق المصوبة إليه وهو يتطلع حوله بنظرات حائرة ولا يكاد يفهم شيئاً ثم أشرقت عيناه فجاء عندما لمح «السرجننت ماجور فوكس» يسير بجوار فصيلة من الجنود بجوار سور حديقة الأزبكية فصرخ يناديه في جنون فتوقف هذا الأخير لحظة والتفت وراءه ورأى المعلم أبو الذهب يدعو إليه بحركات من يده ، وكاد المعلم أبو الذهب ينشق غيظاً عندما رأى صديقه يدير له ظهره بقلة اكتراث ويتابع سيره . وعجب كيف يتخلى عنه في مأزقه بعد تلك المدة الطويلة التي عملها سوياً ..

وتكلم المعلم أبو الذهب في العربة التي كانت تحمله ورجاله إلى السجن وهو يراقب في رأس قائل أنها الجنود الأتراك الذين أنحنى عليهم وأخذ يجرده من محتويات جيوبه ، وعندما فتح فيه ليحتج على الجندي لمعت عيناه هذا الأخير ومد يده وجذب أسنان المعلم أبو الذهب الذهبية من فمه ...

وفي هذا الوقت كان الأستاذ سعد الدين أبو العيينين المحامي قد فرغ من خطبته الملهبة وابتدأ يدور بأنظاره في أجمع الشائر المتنفس حوله ثم أشار إلى طريق القاهرة وصرخ في الناس بصوت مدوي يدعوهم إلى التضحية والفداء

ووقفت القروى متولى أبو الحج حسنين يراقب الجموع الشائرة وهي تعدو وراء المحامي في اتجاه شارع القصر العيني، ثم لمعت عيناه فجأة في انتصار عندما قبضت أصابعه على قلمة كبيرة كانت لا تفتأ عن لدغ كل مكان في جسمه منذ الصباح وأخرجها من بين طيات ملابسها بحرص شديد ثم سحقها بين أظافره وهو يفتد في ارتياح وتشفي، وعندما أخذ يمسح أظافره في جلابيه القدر لينيل من عليهم بقايا القملة، وقف برهة يفكر وقد راعته كمية الدماء التي كان هذا الحيوان الصغير قد امتصها من جسده ... وبغمة نفذ إلى خلايا عقله المظلم شعاع من النور وعرف لأول مرة معنى كلمة الاحتلال والاستقلال والجللاء .. فاندفع يعدو وراء الجموع الشائرة ...

وفي مكان آخر كان عبد الله أفندي الحلوي يشق في قوة طريقه وسط الجماهير وهو يعدو في كل اتجاه بحثاً عن ولده نصيف حتى أتعبه الجري والجهد العنيف الذي بذله فارتكن إلى أحد الجدران وأخذ يلثم في شدة وهو يكاد يسقط من الإعياء ولحمته رغم ذلك، لم يسمح لنفسه بأى راحة وتابع سيره حتى تمكن في آخر الأمر من أن يعرف من أحد المارة أن تلاميذ المدارس محتشدة في ميدان لاظو غلى وراء الداخلية فأسرع إلى هناك ..

وفي هذه اللحظة كانت جموع الشائرين القادمة من روض الفرج قد وصلت إلى شارع عبدالعزیز وهم يهتفون في هياج ومن ورائهم شكرى أفندي عبد الباقي، الذي كان القلق على زوجته التي تم بالوضع قد عاد إليه، ولكن الأحداث التي كانت تجري أمامه اجتذبت انتباهه، فأنحنى وتناول حجراً

كبيراً عاوجه في الهواء صوب أحد الجنود الانجليز، وعندما أصاب الحجر
الهدف صفق في حماس ونسى زوجته ...

وفي الناحية الأخرى كانت الجموع القادمة من الجيزة بقيادة الأستاذ
سعد الدين أبو العنين المحامي قد وصلت إلى شارع القصر العيني واصطدمت
بفرقة من الجنود الانجليز كانوا قد تحصنوا فوق سطح أحد المنازل وأخذوا
يطلقون الرصاص باستمرار ليغموا الثوار على الرجوع إلى الخلف، ووقف
الجميع يتشاررون في السكينة التي يستطيعون بها تطويق هذه الفرقة من الجنود
والاستيلاء على أسلحتهم ...

وفي هذا الوقت كان عبد الله أفندي الخلو قد وصل وهو منتفش
الشعر ممزق الملابس ويكاد يسقط اعياءه إلى ميدان لاظو غلى وأخذ يدور
في أرجائه يبحث بعيون زائغة بين الجماهير المحتشدة عن ابنه نصيف
وتطوع بعض الطلبة المزدحمين في الميدان لمساعدته بعد أن أشفقوا على
حاله .. وابتدأ الجميع يدورون زمنا طويلا في الشوارع المجاورة
حتى لمحوا في آخر الأمر جمعا كبيرا من الناس يقف في شبه حلقة واسعة
فاتجهوا صوبهم وأسرع عبد الله أفندي يدفع الناس من أمامه بقوة وهو
يشق طريقه بصعوبة خلال الزحام وقد حدثته نفسه بمصاب جلل ، وعندما
وصل إلى داخل الحلقة لمح على الأرض في داخلها عدداً كبيراً من
الجثث ولا تزال الدماء تنرف منها فصرخ في يأس وهو يحس كأنه كلابه
حديدية تطبق جدرانها على قلبه وتعصره بينها في وحشية وأخذ يدور
كالخجول بين الجثث الملقاة على الأرض ثم وقف آخر الأمر أمام إحداها
وانحنى وفي نفسه بقية أمل وقلب الجثة على ظهرها ، وخیل اليه أن السماء قد
انطبقت على الأرض عندما طالعه وجه ابنه نصيف وعيناه تحدقان في السماء
بنظرات فارغة ..

وجلس عبد الله أفندي بجوار جثة ابنه يحتضنها في جنون وهو يشد شعره ويلطم خديه ويولول كـالنساء . . . وفجأة نهض على أقدامه ووقف لحظة يتأمل جسد ابنه المخرق بالرصاص ونخه الذي تبعثر على الأرض ، ثم قذف بنفسه خارجاً من وسط الجموع الملتفة حول هذا المنظر المروع وانطلق يعدو الطرقات وقد فقد صوابه . . .

وفي هذا الوقت كان الأستاذ سعد الدين أبو العيينين المحامي يدور في وسط حلقة من الشباب المتقدمية وحماسة ، وقد ملعت أنظار الجميع بريق الاستهتار والتحدى للموت وهم يتجهون في تصميم نحو العماراة التي تحصن بداخلها الجنود الانجليز يمطرون منها الثوار بسيل لا ينفطخ من النيران . . .

وانضم الى الجموع الزاحفة نحو العماراة الجموع الغفيرة القادمة من الزمالك ومن بينها عبد الباقي السكتناس الذي كان يلوح بمكنسته في الهواء بحماس ، بينما وقف سوسو بك على بعد قليل منه وفي يده سدس صغير كان يطلقه كلما لمح وجه أحد الانجليز مطلاً من نوافذ العماراة ، وفجأة توقف الجميع عن الزحف عندما ارتفع في هذه اللحظة من فوق رؤوسهم صوت صرخات وطلقات نارية سريعة ورفعوا أبصارهم الى أعلا وشاهدوا القروي متولى أبو الحج حسنين ، الذي كان قد نجح في التسلل إلى أعلا العماراة ، وهو يقف على حشية عمداً كبيراً من الجنود الانجليز تمكن من أن يقذف ببعضهم إلى الأرض قبل أن يلحق بهم بعد أن أمثالاً جسده بالرصاص . . . وقبل أن يفريق الجنود المذهولين من المفاجأة تدفق إلى داخل العماراة سيل هائل من الجماهير ، وبعد قليل كان .. داخل العماراة قد تطهر تماماً من الجنود الذين كانوا يرقدون في هذه اللحظة بجوار جثة القروي متولى أبو الحج حسنين ، بعد أن اختفت أسلحتهم وانتقلت إلى أيدي الثوار . . . وانفتح الحصار أمام الجماهير الثائرة .

وتخلف سوسو بك قليلا وراء الجهاهير وهو يشير إلى الاستاذ سعد الدين أبو العنين المحامي فذهب إليه ورفع الإثنان بينهما جثة القروى متولى أبو الحج حسنين ومضيا بها إلى أحد المنازل القريبة الذى كانت أبوابه قد فتحت فى هذه اللحظة على مصراعيهما ووقف فى مدخله عدد قليل من النساء فى انتظارهم وبعد أن وضعوا الجثة على فراش فى داخل المنزل وفردوا عليها غطاء نظيفا، وقفنا فى خشوع وأخذنا يتلو ان صلاة قصيرة ثم اندفعوا خارجين إلى الشارع ونمائمهما تغلى فى عروقهم كالحديد المصهور ...

وفى هذا الوقت كان عبد الله أفندى الحلو قد وصل إلى شارع بولاق وألقى بنفسه فى جنون فوق أول جندى انجليزى قابله وقد أولاه الغضب والحزن على موت ابنه قوة هائلة ، وأطبق يديه على عنقه ولم يتركه إلا جثة هامدة . وقد حدث كل هذا فى سرعة خارقة ، وقبل أن يفيق الجنود من ذهولهم كان عبد الله أفندى قد تمكن من اختطاف بنديقة الجندى القليل وأخذ يطلق منها الرصاص كيفما انفتق ...

وأصاب رصاصة طائشة «السر جنت ما جور فوكس» الذى كان يدور فى هذه اللحظة وسط جنوده يصرخ فيهم ويحشمهم على البطش بالشوارفار سلتة يتخبط فى دمائه على الأرض وأراحت جنوده من عناء طاعة أو امره المتواصلة. ولحق به عبد الله أفندى الحلو بعد بضعة ثوان ..

واستمرت المعركة بعد ذلك زمنا طويلا، وقد انقلبت الشوارع إلى قطعة نائرة من الجحيم ، ولم يعد يسمع غير اصوات الصراخ والآنين وتأوهات الجرحى محتاطة بدوى المدافع وأزيز الرصاص وهو يتطاير فى الجو ، وامتلاأ الهواء فى كل مكان بدخان البارود، وفقد الجميع وعيهم وثار

في أعناقهم غريزة أجدادهم الوحشية وانطلقوا من عقابهم وأخذوا يعمدون القتل والتدبير في كل من يقابلهم من الإنجليز ...

وفي أحد الشوارع المتفرعة من ميدان عابدين كان المعلم أبو الفتوح الجزار يقاتل في جراحة وبسالة وعريية، ويدور بساطوره الكبير مداعبا رؤوس كل من يقابلهم من الإنجليز والرصاص يتساقط من حوله كالطار، وتدفقت الدماء من كل جزء في جسده ولم يكن له أن يتوقف عن القتال، وعندما انكسر الساطور في يده مضى يبحث لنفسه عن سلاح بين جثث القتلى الإنجليز، وقبل أن ينهض بعد أن طبقت يده على بندقية أحدهم أصابته رصاصة جعلته ينسكب على وجهه والدماء تتدفق من جسمه في غزارة ...

وعلى بعد قليل من المكان الذي سقط فيه المعلم أبو الفتوح الجزار وقف عبد الباقي الكناس وهو يحترق شوقا لأصطياد أحمد الجنود، وحبس أنفاسه عندما لمح جماعة منهم قادمة تعدو في اتجاهه وشرع مكنسته في يده وهوى بها في عنف فوق رأس أحدهم، وقبل أن يتمتع طويلا برأى رأس الجندي الإنجليزي المحطم أصابته ثلاث رصاصات في صدره أرسلته إلى الأرض فاقد النطق ...

وفي الناحية الأخرى من الميدان كان المعلم أبو سريح فتوة درب عبد الخالق يربض فوق سطح أحد المنازل المنخفضة الارتفاع، ويمد يده ليناول إبراهيم أفندي خليل الموظف بالحقانية بعض الطلقات ليملاها ببندقيته، وبعد أن ابتسم الإثنين لبعضهما في مرح تمدداً على سطح المنزل وابتداء في اصطياد الإنجليز ...

وفي شارع عبد العزيز كان المعلم أبو شنب صاحب صالون الخدمة بحارة القرشي في السيدة زينب يقاتل لأول مرة في حياته وهو مخمور

من المشاعر التي أحس بها تتدفق إلى دمائه، عندما أصابته لطمة عنيفة فوق رأسه ودخل إلى أحشائه سونسكى حاد من بندقية أحد الجنود الانجليز ...
وتدفق بعد لحظات إلى جميع الشوارع عدد كبير من العربات المصفحة وطوابير طويلة من الجنود الانجليز وفرقة كاملة من راكبي الخيل، وطوق الجيش الانجليزى المكان من جميع الجهات ...

وأطل أحد الفلاسفة من نافذة حجراته ... ولا يتسم فى سخريته وهو يرقب طوابير جنود الإنجليز وهي تتدفق بكثرة إلى الشوارع ، ثم هن رأسه مشفقاً وقال محدثاً نفسه ...

— يا لهم من حتمى ... إنهم يظنون أنهم قادرون بالحديد والنار على خنق ينابيع الحرية التي تنفجرت فى القلوب ، ولكنهم ... ولا شك ... سيعرفون مقدار خطئهم عندما تنفجر عما قريب السيول المختزنة فى الصدور وتستهلك فى طريقة كل شيء ...

ووقف الفيلسوف لحظه يراقب أساطحة الجنود وهي تلمع فى أشعة الشمس ثم تنهد فى أسى ورجع إلى كتبه ...

وابتدأت جموع النافرين تتسحب من الطرقات بالتدريج للاستعداد لمقاتلة هذا الجيش العرمرم، وكان الدكتور لمعى وهو يسير وسط الجماهير عائداً الى عيادته يدور بعينيه فى كل مكان بحثاً عن تمرجيه محبوب حتى عثر عليه فى آخر الأمر ملقى على الأرض فاقد الحياة، فتنهَّد فى حزن وتابع طريقه إلى عيادته .. وبينما هو سائر فى الطريق وصلت إلى آذانه آتات ألم صادرة من أحد الشوارع ففضى نكوهها ووجد سوسو بك وعبد الباقي السكتاس راقدين على الأرض والدماء تنزف منهما فأشار إلى بعض المارة وطلب منهم حملهم إلى عيادته ..

وسار الجميع في صمت لا يقطعها غير تأوهات الجرحى في طريقهم إلى
مواقع وهم يسلكون الشوارع الجانبية في سيرهم حتى وصلوا إلى عيادة
الدكتور لمعى بعد أن زاد عدد الجرحى المحمولين على الأكتاف وأصبح
يريد عن الثلاثين شخصا ...

وغسل الدكتور لمعى يده ووضع معطفه الأبيض فوق ملابسه الممزقة
وأقبل على الجرحى وأخذ يعمل في سرعة وثبات لتخفيف آلامهم، بينما كان
الجمع الغفير الذى غصت به العيادة على آخرها يتحرك فى شتى الأركان بدون
أن يحدث أى صوت ليساعد الدكتور لمعى فى مهمته ...

وأطل الناس من النوافذ فى كل مكان وزفرات الحزن والالام تنطلق
من صدورهم وأخذ يتأملون جثث القتلى المبعثرة فى الشوارع وقد ملعت أعينهم
ببريق رهيب وهم يشاهدون برك الدماء التى تجمعت فى كل مكان ..

وتوارت الشمس خجلى وراء سحاب كثيفة من الغيوم ولم تقبل أشعتها
أن تشرق على الخراب والدمار الذى يعم كل مكان فى الأرض تحتها
وهى التى تعودت على أن تهبها الحياة ...

وهبط الظلام أخيرا على العاصمة الشاككة ... وتوارى سكانها خلف
جدران منازلهم ... وفى كل عين دمة ... وفى كل قلب لوعة ...

وابتدأت الرياح تصفر فى الشوارع المهجورة فى عويل حزين كأنها
تشارك أهل المدينة أحزانهم ...

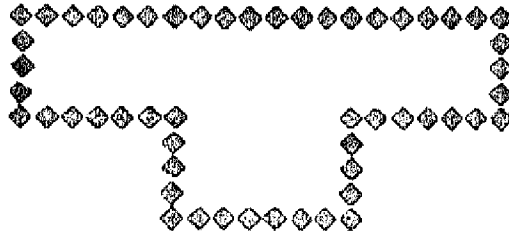
وفى كل منزل ... وخلف كل جدار ... ووراء كل نافذة ... وبين
جنبات كل كوخ ... كان كل فرد يبكى عزيزا له ... لن يعود ...

وفى عيادة الدكتور لمعى كان الجمع المحيط بالجرحى لا يزال منهمكا
فى بذل كل ما يستطيع للتخفيف من آلامهم، وقد امتلأت عيونهم
بنظرات تنبئ عن شر مستطير ...

وبينما كان الجميع مستغرقون في عذابهم النبيل وقد خيم على جميع أرجاء
العبادة صمت رهيب ، لا يقطعة غير أصوات تأوهات الجرحى ، ارتفع
في هدوء الليل من أحد المنازل المجاورة صوت قوى يرتل بعض آيات
الذكر الحكيم ...

ورفع الجميع رؤوسهم وأخذوا ينصتون للصوت في خشوع وإيمان
وهو يردد الآية الكريمة .

— هم يكيدون كيدا ، وأكيد كيدا ، فأمهل الكافرين
... أمهلهم رويدا ... !!



أنها...:

البؤس

وكيفي...

البؤساء

لم يكن يخالجنى قط حين ابتدأت منذ خمسة أعوام تحت تأثير ظروف خاصة في كتابة البؤساء فكرة نشرها لعدة أسباب أهمها أنه كان بين سطورها ما يكفي لإتهامى بالترويح لعشرات المبادئ الهدامة التي لا تستحق عليها عقوبة أقل من الحرق حيا في أكبر ميادين العاصمة ، مثلما كان يحرق السحرة ومحترفي الشعوذة في العصور الغابرة ، واسكني الآن وقد تغيرت الظروف استطيع أن أدفع بها الى ايدي القراء بدون أن أخشى شيئا .

وقصة البؤساء هي بحق قصة المجتمع المصري كما كان يعيش في الماضي بفجوره ومتناقضاته العجيبة ، وقد حرصت في أثناء كتابتي لها على تصويرها في نفس الإطار الدامي الذي رسمه لي أحد أبطالها الذي رواها لي بنفسه في ذات مساء في ظروف لا تدعو مجالا الى الشك في صدقه ، ولم ألوا جهدا في إبراز حقائقها كما سمعتها منه لثقة بشعة تبثت على الرعب والاشمئزاز في النفوس وتدفع المرء لأن يتساءل رغما عنه - كيف قبلنا أن نعيش طيلة هذه الأعوام الماضية في مثل هذا المجتمع العاهر وأن تتمزغ في أحوال مخازية بدون أن نحرك ساكنا . . . ١١٩ .

وتنقسم قصة البؤساء الى قسمين كاملين يكون كل قسم منهما رواية قائمة بذاتها ولا يربطهما غير أن القسم الثاني يستمد حوداثه من القسم الأول وقد كنت أود أن أقول عنهما في هذه المقدمة الكثير ، واسكني فضلات أن أترك هذا للقراء ...

محمد حسين
صحة

نحو أدب جديد ...

اقرأ في مجموعة (المهربون) القادمة

عقراؤك يا أمما ..

لأبصق في وجوه الخونة والمترددين ، وقولى لهم أن رصاص
المستعمرين لا يفرق بين أبناء الوطنيين وأبنائهم ... وانتهالى ضربا
بالنعال على كل من يقف بينك وبين الحرية ... ولا تخشى بأمن
أحد ... واقسمى على قبور الشهداء - إن لم تعرفى لى قبرا - بأنك
لن تعيشى وأبنائك بعد اليوم عبيدة مطامع بضعة أفراد
يسيروك حسب أهوائهم ...

وصية أحد الأبطال الذين استشهدوا فى معركة الإسماعيلية
المشهورة يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ ، الى والدته قبل أن يلفظ
أنفاسه الاخيرة ..

من بين صفوف الشعب . . .

يتقدم كاتب وطني قائل . . .

يفرل التاريخ ويحطم في إستهتار جميع المعايير المعروفة . . .

— أهذا كل ما استطاع مجلس النواب عمله ردا على هذا الاعتداء

المهين ١١٩ . . ألم يستطيع أن يفعل شيئا غير توجيه الشكر إلى مجلس
النواب العراقي على قراره تأييد مصر ومشاركتها في كفاح الحرية
والإستقلال ١١٩ . .

أين هو الكفاح ١١٩ . .

وأين هي الحرية ١١٩ . .

وأين هو الاستقلال ١١٩ . .

ثلاث أسئلة حائرة قفزت إلى ذهني في هذه اللحظة وأنا أتأمل باقي
العنوان الكبير الذي يذكر أن نائب الاسماعيلية اعتذر عن الحضور
لمنع السفر إلى مصر بدون تصريحات بريطانية . . .

ما هذا التناقض العجيب ١١٩ . .

مجلس النواب المصري يوجه شكره إلى مجلس النواب العراقي على
قراره تأييد مصر ومشاركتها في كفاح الحرية والإستقلال ، وفي السطر الذي
يليه مباشرة نبأ أحد النواب الذي لم يستطيع الحضور لأنه لم يتمكن من
الحصول على ترخيص بريطاني بالإنتقال داخل حدود بلاده ، وفي الصحيفة

الأولى ثلاث صور مخزية يرسل مرآها إلى العيون سهاما مسمومة ، وبعد
كل هذا يتحدثون عن .. الكفاح .. والحرية .. والإستقلال !! ..
هل هذه مجرد كلمات جوفاء لا تعنى شيئا ...

هل استطاع نائب السويس وبور سعيد الحصول على تصريحات من
من القوات البريطانية وتمسكنا من حضور اجتماع مجلس النواب الخطير
ومشاركته في جلسته التاريخية الهامة والمواقفة على توجيه الشكر إلى
مجلس النواب العراقي ... ؟

اقرأ كل هذا وغيره من المفارقات العجيبة التي كانت تحدث في العهود
الماضية ونمر عليها بأنظارنا بدون أن نغيرها التفاتا ...

في العدد القادم



قلم جرىء

أسلوب جديد

بقلم

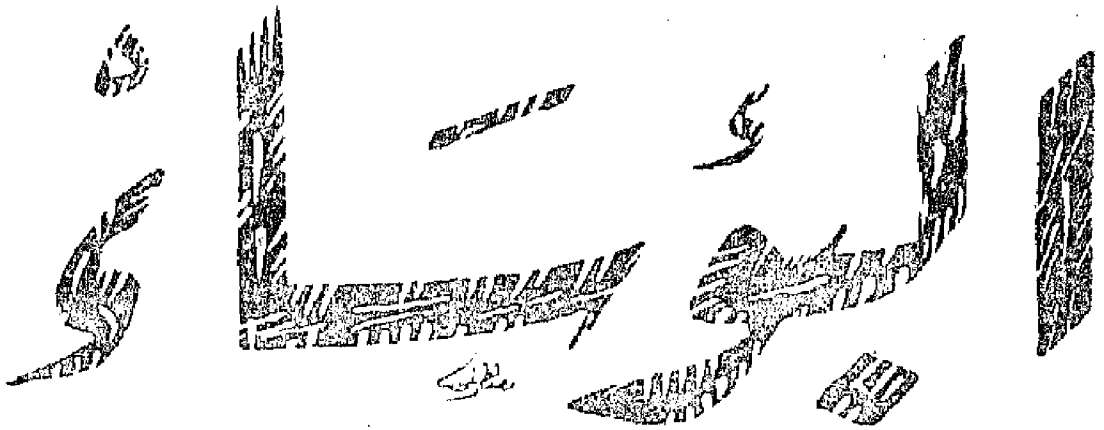
مفني كمال صوري

من قال هذا ... ؟

دعني أسدي اليك نصيحة يا بني ... إن الغاية لآتهم
بقدر ما يهم الدافع اليها والغرض منها ... وما دمننا
مؤمنون بما نقاتل في سبيله ، فلن نتردد عن استعمال
أى سلاح لنصل الى ما نطمح اليه من ... الحرية ،
والكرامة ، والإستقلال ...

أقرأ ذلك في العدد القادم ...

قريباً جداً..



القسم الأول

البَيْقُ الكبير

(أدب الثورة)

يتحدثون اليوم كثيرا عن الأدب الجديد ،
وأنا حين أتساءل عن النوع الذي يجب أن
يكون عليه هذا الادب لا أجد نفسي بحاجة
إلى البحث عن جواب ، لأنني أجسد الهدف
واضحا أمامي ولا يحتاج الى كل هذه الخيرة .
إن نوع الأدب الذي يجب أن يسود
وبخاصة في مثل هذه الظروف التي تتنازعها
بلادنا هو الادب الثائر الذي لا يقف أمامه
شيء وإن عظم . . .

الأدب الساخط على مخازي الماضي ومساوئه
الأدب الملتهب الذي يستنهض الهمم ويظهر الدعم
ويعد الأذهان للمركة الفاصلة المنتظرة بيننا
وبين قوات الاحتلال التي تجثم فوق صدورنا
الأدب الذي يبجل أفكار المستعمر ويفتده
سوابه ويعملنا نربح في غير مشقة تلك المركة من
حرب الأعصاب التي يشنها علينا الإنجليز وأعوانهم
وأنا لا أعني بهذا انه يجب علينا أن نطلق
كل انواع الأدب ماعدا هذا وإنما أعني انه يجب
علينا جميعا أن نتحول مؤقتا الى ابواق ثائرة
ساخطة لاعنه نصرخ في آذان النائمين وتثير
الطريق أمام العقول الجامدة التي لا تزال
متأثرة بتماليم الاستعمار . . .

يجب علينا أن نشور ونغضب وأن نترك
مشاعرنا تنور وتغلي لتندفق الكلمات من
أطراف أقلامنا ملتهبة مثل الحديد المنصهور . .
يجب علينا أن نشور فيغير الثورة لن نصل الى
ما نطمح فيه من الحرية والكرامة والاستقلال فان
الحرية لا توهب وإنما تؤخذ بالقوة ولم نسمع قط
أن الحرية قد طرقت أبواب المستضعفين والمنحاذلين
هذا هو ما يجب علينا عمله اليوم الى أن يتحقق
لبلائنا ما نرجوه لها من الرخاء والقوة ، وبعد
ذلك يمكننا أن نطرق جميع أبواب الأدب ونسبح
في أجوائه بقول متحررة من الرياء
وانفاق نافرة من الابتال

هذا واجبتا فلنسارع الى تأديته بكل ما نملك
من قوة اذا كنا جادين حقافيا ندعيه من
الغيره على مصالح بلادنا ؟